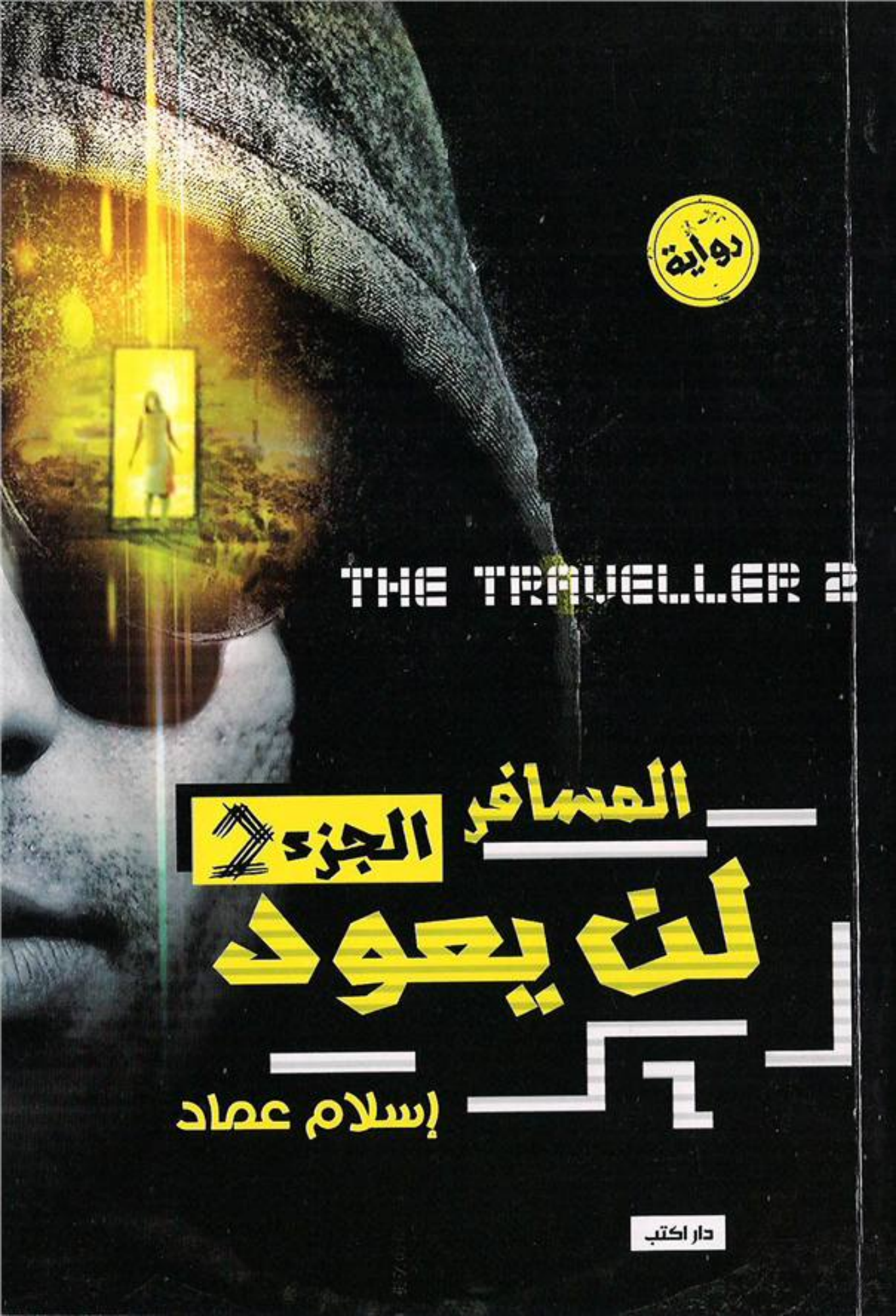

رواية
THE TRAVELLER 2
المسافر
الجزء 2
لن يعود
إسلام عماد
دار اكتب

المُسافر
الجزء الثاني
لن يعود
إسلام عماد
تصميم الغلاف: محمد عيد
تدقيق لغوي: خالد رجب عواد
رقم الإيداع: 2015/23133
I.S.B.N: 978- 977- 488- 324- 8

دار اكتب للنشر والتوزيع

الإدارة: 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،
المرج الغربية، القاهرة.
المدير العام: يحيي هاشم
هاتف: 01144552557 - 01147633268
E – mail:daroktob1@yahoo.com
دار اكتب للنشر والتوزيع:Facebook

الطبعة الأولي، 2016م
جميع الحقوق محفوظة©
دار اكتب للنشر والتوزيع

المُسافر

لن يعود

إسلام عماد

رواية

دار اكتب للنشر والتوزيع

شكر وإهداء

أكرر امتناني لكل من قرأت لهم كتابًا....أفدتموني كثيرًا بالفعل.

شكرًا لعائلتي وأصدقائي الأعزاء في العالم الواقعي أو عبر الإنترنت ممن وقفوا بجانبي خلال فترات كتابة الرواية.

شكر خاص لأصدقاء العمر"ماريو عياد - مصطفى المصري"، زميلاتي الفنانات "سارة الشيخ – نورهان محمد أنور – إنجي عبد الله"، وزملائي الأحباب بكلية الفنون الجميلة جامعة حلوان.

الأصدقاء الأعزاء "إيهاب نبوي - محمد عبد السلام" على آرائهم الغالية، الصديقة الفلسطينية العزيزة "آمال محمد" على تشجيعها الدائم،

دائمًا وأبدًا...أخيرًا وليس آخرًا

إهداء لكَ أيها القارئ وأيتها القارئة.

أظنكم قد قرأتم ما كتبتُه بتلك الورقات التي وصلت إليكم...وإلا ما كنتم استدعيتموني إلى هنا!

وأرى في عيونكم نظرات الاستنكار وعدم التصديق ممتزجة ببعض اللامبالاة الكاذبة...

لكم الحق في ذلك...ولي مطلق الحرية في عدم الاكتراث لنظراتكم تلك...من رأي مثلما رأيته بتلك الشهور السابقة سيعلم مدى صدق كلماتي، أما مَن هو مثلكم، فإني بالفعل أشفق على عقله المقتنع بطبيعة الزمن من حوله ويحيا واثقًا بثبات قوانينه بكل رضا وهدوء...

أعلم أنكم قد رأيتم من هم مثلي كثيرًا..وأنكم تجزمون بجنوني الآن...

ولكنني سأكمل لكم السرد هذه المرة بدون وسيط ينقل قصتي...ستخرج أحداثها من فمي لآذانكم الغافلة...لعلكم تدركون كيف انهدمت أركان حياتي ووصل حالي لما أنا فيه الآن من سوء ترثى له نفوسكم...

وما زلتُ مصرًا على رأيي...فهو ما تبقى لي مما أملك بعدما ضاع كل شيء...

إذا أردتم سماع باقي قصتي، فلا تخضعوها لثوابتكم الهشة...

اتركوا وراءكم كل ما تعلمونه....فقد كنت مثلكم ...

ولكني أدركت حقيقة ما نحن فيه مِن وَهْمٍ...

20

انتقلنا بنجاح لحاضرنا، وها هي غرفة مكتب جدي تزدان أمامنا بكتبها المبهرة، وذلك المكتب العتيق الذي رأي من الأحداث ما قد يجعله قريبًا من البوح بها لفرط غرابتها...

في رحلتي الأولى رأيت من الأهوال ما لا أصدق حدوثه حتى الآن، ولعل أهونها على عقلي هو اكتشافي أن جدي ما زال حيًا، بعدما غرقت بأحزاني طوال الأيام السابقة مترحمًا على أيامي معه..

أما جدي، فقد كانت تلك الرحلة بالذات شاقة للغاية بالنسبة له...تقدمه في السن بالإضافة لسوء التغذية والمعاملة المهينة التي تعرض لها بـــ"الديماس"، كل ذلك جعل من مجرد عودته واقفًا على قدميه، حدثًا أشبه بالمعجزة الإلهية..

تملكني شعور الإعياء لدقائق، فاستندت علي جانب المكتب محاولًا التماسك، وبالفعل استطعت منع نفسي من التقيؤ مرة أخرى..نظر

إليّ جدي الذي وقف في ارتياحٍ وعيونه تنظر لجوانب الغرفة في شوق ولهفة...

"متقلقش....مع الوقت هتتعود زي ما أنا اتعودت على أعراض السفر دي".

مرت دقائق بطيئة، استعدت بعدها قدرتي على الوقوف بكامل إرادتي. تنفست الصعداء لوصولنا للحاضر، ثم نظرت لجدي نظرة طويلة، احتضنته بعدها في سعادة.

ثم توقفت للحظة مستعيدًا ما قاله منذ قليل...

– "مع الوقت اتعود؟ ازاي؟ هو فيه رحلات تاني؟"

نظر لى جدي بنظرة ذات معنى، أتبعها بقوله:

– "طبعًا فيه رحلات تانية...تقدر ترفض؟"

تبسمت بالرغم مما يعانيه كلانا من تعب، وهززت رأسي نافيًا...فأردف:

– "إحنا لازم دلوقتي نستريح من تعب الأيام اللي فاتت دي...ومن بكره نبدأ نجهز للرحلة التانية".

انتهت تلك الليلة بنوم عميق أنعم الله به علينا تعويضًا لنومنا المختلط بالأرق المرعب الذي قاسيناه بزنزانة الديماس...

***

استيقظت بالصباح الباكر، فوجدت جدي ما زال غارقًا في نومه...لم أشأ أن أمنعه عن تلك الراحة الإجبارية التي يحتاج لها بالفعل..واستغللت تلك الفرصة لإعداد فطور هنيئٍ لكلينا، يشبع رغبات بطوننا التي قاست الجوع خلال تلك الرحلة المشئومة...

جال العديد من الأفكار بعقلي وأنا أرمق الطعام أثناء تحضيره على الموقد...بالفعل لا يمكنني استيعاب كل ما حدث في السويعات الماضية..وما يثير دهشتي أن تلك الرحلة وإن طالت بمقاييس زمنها، فإنها لم تدم في وقتنا الحالي إلا بعض الدقائق القليلة!

أشخاصٌ قابلناهم وزنازين أُلقينا بها، وإعدام كاد أن يتم تنفيذه بنا..كل ذلك في نظر حاضرنا لم يستغرق وقتًا أطول من أي أغنيةٍ خفيفةٍ من تلك الأغاني التي تذيعها قنوات الموسيقى على شاشات التلفاز!

انتهيت من إعداد الفطور بنجاح والحمد لله- نظرًا لخبراتي السيئة في طهو الفطور بالذات - لأجد جدي قد انتهى من صلاته واتجه نحو مائدة الطعام...ضاحكته مازحًا:

- "وانا اللي كنت لسه جاي أصحيك..ألاقيك ناوي تخلص الأكل قبل ما أوصل"

أجابني جدي:

- "وهو انتا كنت حاسس بيا؟ دانتا كنت سرحان في ملكوت تاني..هاهاها...إيه اللي واخد عقلك يا أدهم؟"

أجبته بكل صدق:

– "مخي مش قادر يستوعب كل اللي حصل لحد دلوقتي...إزاي نسافر لأيام ونرجع نلاقيها كانت دقايق مش أكتر؟ حتى السفر نفسه، كأنه حلم غريب حصل لى..."

اعتدل جدي في مجلسه، وقبل أن يهم بتناول الخبز من أمامه أجابني:

– "الزمن نسبي يا أدهم، وخلى بالك إن البوابة اللي بنعبر منها للماضي بنستعملها تاني للرجوع لحاضرنا....يعني كأنك دخلت من باب الأوضة وخرجت منه تاني...كل دا بياخد وقت قليل طبعًا"

ثم فجأة نهرني قائلًا:

"الفول هيبرد! سيبك من الزمن دلوقتي وركز في الأكل اللي قدامك".

بهتت للحظة، ثم انتبهت لمزاحه فتمازجت ضحكاتنا كما امتزج الفول بالسمن والطحينة...

***

قضينا ظهيرة يومنا الأول بعد العودة في التسامر والمناقشة.. فتارة أحدّث جدي وأقص عليه ماذا حدث بحياتي منذ افتراقي عنه، وأخبره عن "أروى" وعملي وأصدقائي، ثم يتحول نقاشنا لحوار عملي جاد نبحث فيه خططنا لرحلاتنا القادمة، ويقترح كلانا على الآخر حدثًا

تاريخيًا يجدر بنا رؤيته رأي العين، فنعلم صحته بدلًا مما حفظناه من تاريخٍ كُتب بأيدي المنتصرين فقط...

تواصل حديثنا حتى ارتفع صوت أذان المغرب، فقمنا معًا للوضوء والصلاة...وبعد أن انتهينا، أخبرني جدي بأنه سيغفو في غرفته قليلًا ثم تركني...

ولجت غرفتي وجلست لعده دقائق أقلب في صفحات بعض الكتب الموضوعة بجانب فراشي... اقرأ الكلمات بعين واحدة ونصف عقل...

ارتفع رنين هاتفي المحمول، فوجدته "خالد" يخبرني بتجمع الأصدقاء معًا بعد قليل بأحد المقاهي القريبة من المنزل...أكدت له حضوري وسارعت بالفعل بالذهاب إليهم..

بالمقهى قابلت الرفاق وإن تغيب بعضهم...حضر منهم "خالد"، وبالتأكيد كان معه "يوسف"..ثم أتى "أحمد" متأخرًا قليلًا...بينما لم يحضر "صبحي" لانشغاله ببعض المواضيع المتعلقة بالعمل الذي التحق به مؤخرًا، وبالطبع لم يتمكن "شريف" من المجيء، فما زال جدوله لهذا الشهر مزدحمًا بتجهيزات الشقة وقاعة الزفاف مع خطيبته...

شربنا الشاي والعصائر خلال جلستنا..ولم يتوقف "خالد" عن إضحاكنا بنكاته وآرائه الحاتية –نسبة للحاتي صانع الكباب والكفتة، وليس الحياة حسب قوله – .. وبعد أن اطمأن كل منا على أحوال الآخرين، وجّه "خالد "سؤاله لـ"أحمد" قائلًا:

– "وإيه أخبار البنات اللي بتكلمهم يا عم أحمد؟ وصلت للألف؟ تلاقيك خلصت الرقم دا من زمان"

ابتسم "أحمد" ثم قال:

– "إنت عارف إني في الموضوع دا بالذات مبرحمش....بس أعتقد إني لسه موصلتش".

ضحكنا لتلك الإجابة، ثم أكمل "أحمد":

– "وبعدين زي ما بيقولوا (العين فلقت الحجر).. أنا لسه مفركش امبارح مع البنت اللي كنت اعرفها".

سألته عن السبب، فأجاب:

– "مش بتبطل زنَ...عاوزة تعرف كل تحركاتي، و بتتدخل في كل حاجة...ومهتمة بيا بزيادة".

قاطعه "خالد":

– "يا راجل حرام عليك...هوّ فيه أحسن من الاهتمام دا؟ أنا "ميار"بتكلمني في اليوم ييجي عشر مرات، وكل مرة ييجي نص ساعة.."

ثم اعتدل في مقعده وأكمل:

– "الاهتمام دا اكبر دليل على أهمية العلاقة بالنسبة للطرفين..من غيره بتبدأ الثقة في نجاح العلاقة دي يقل، وتبدأ الخناقات في الظهور".

اندهش جميع الحاضرين، فنظر إلينا "خالد" في قلق قائلًا:

– "إيه يا جماعة...مالكو؟"

أجابه "أحمد" في دهشة:

– "أول مرة نسمع منك الكلام العميق دا!"

ارتفعت ضحكات "خالد" وتوالت بعدها ضحكاتنا، فقال:

–"يا جدعان...على رأي الشاعر..(الحب يصنع المعجزات).. وعلى رأي العبد لله..الحب من غير اهتمام زي الشقة من غير حمام".

انفجرنا في الضحك حتى كاد العصير أن ينسكب من كوب "يوسف" على ملابسه، فقال:

– "أهو دا خالد بتاع الهلس اللي احنا نعرفه...حمد الله على السلامة يا كبير".

***

عدتُ بعد ساعتين للمترل فوجدت جدي ما زال غافيًا في غرفته...أغلقت باب غرفته، وعدتُ لغرفتي لأنام...في عقلي موضوع يتردد بكثرة بعد حديثي مع الرفاق منذ قليل...ألم يحن الوقت لمحادثة "أروى"؟ إنها المرة الأولى التي أمتنع عن محادثتها لكل تلك الفترة منذ أن لاقيتها، وإن كان فراقي عنها بسبب أمور لم يكن لي يدّ بها...

مثلما قال "خالد"..الاهتمام جانب ضروري في العلاقة بين الرجل والمرأة، "أروى" تهتم بيَ كأم حانية...بينما أخطأت أنا في حقها بذلك الجفاء الغريب..تأكدت من خطئي بالفعل، وقررت مهاتفتها، وبمجرد

اقترابي من الهاتف وجدته يرن فجأة بالرنة المميزة لـ "أروى"، وقد أضاء اسمها المحبب إلى قلبي شاشة هاتفي...

ابتسمت وأمسكت بالهاتف لأرد عليها قائلًا:

"إزيك يا حبيبتي..." ليقاطعني صوت صياحها الملتاع:

"إلحقني يا أدهم ماما بتموت!"

***

صدمة هائلة انتابتني فجأة، ولثوانٍ لم أجد الكلمات المناسبة فأسرعت قائلًا:

- "خليكي عندك...مسافة السكة وجايلك".

أقرنت قولي بالفعل، فأغلقت الهاتف مسرعًا نحو دولابي، خلال دقيقتين على الأكثر استبدلت ملابسي السابقة استعدادًا للخروج، ولم أستطع إيقاظ جدي، فتركت له ورقة دونت بها بخط سيئ ما حدث على وعد بالعودة سريعًا وتاركًا له رقم هاتفي..

هرعت لخارج المنزل واستقللت أول سيارة أجرة وجدتها أمامي، طلبت من السائق الإسراع قليلًا بينما أصابعي المرتعشة تدق أرقام هيئة الإسعاف على هاتفي...خلال عشرين دقيقة تجاوز فيها السائق المسافة من منطقة شبرا حتى منطقة مدينة نصر مستعينًا بالكثافة المرورية النادرة في ذلك الوقت المتأخر من اليوم...

وصلت بالفعل لمنزل "أروى" لأجد سيارة الإسعاف أمام المنزل، وقد تجمَّع بعض الأهالي والسكان حولها، والمسعفون قد بدؤوا بإنزال

والدة "أروى"على محفة بيضاء لنقلها داخل السيارة...أسرعت نحو سيارة الإسعاف لأجد "أروى" خلف المسعفين تنظر لأمها بكل خوف وعيناها لا تتوقفان عن البكاء...بمجرد أن رأتني أسرعت تجاهي واحتضنتني، لم أفهم حرفًا من كلامها المتقطع، فحاولت تهدئتها وأخبرتها بوجودي معها حتى نصل للمستشفى..

لم يمكننا استقلال سيارة الإسعاف مع المسعفين، فنظرت حولي فلم أجد إلا نفس سيارة الأجرة التي جئت بها إلى هنا، وسائقها يخرج رأسه من نافذتها مشيرًا إليَّ بالإسراع...يا له من سائق شهم!

استقللنا السيارة وتبعنا سيارة الإسعاف حتى وصلت إلى المستشفى بالفعل، خرجت "أروى" باندفاع نحو سيارة الإسعاف لتلحق بوالدتها التي نقلها المسعفون إلى داخل المستشفى، حاولت اللحاق بها فأخرجت بعضًا من المال من جيبي لأعطي السائق إياها.. فرد مسرعًا:

– "لا يا باشا، مقدرش أخد فلوس.."

حاولت مماطلته وحثه على الابتعاد عن المجاملات، فقاطعني مبتسمًا:

– "ربنا يقومها لكم بالسلامة يا أستاذ....سلام عليكم".

وقفت للحظة شاعرًا بالامتنان لذلك السائق الشهم بالفعل...ثم تذكرت "أروى" فهرعت نحو المستشفى لأرى ماذا حدث...

***

بمجرد دخولي وجدت أروى في نقاش حاد مع موظفة الاستقبال، وحمدًا لله أني قد جئت في الوقت المناسب، فذلك النقاش كاد يتطور لعراكٍ بالأيدي...سألت أروى عن السبب..

"مش عاوزين يدخلوا ماما الطوارئ علشان ناقص خمسين جنيه زياده من الحساب!!"

نظرت مبهوتًا لتلك الموظفة،أخرجت ورقة من فئة الخمسين جنيهًا من جيبي ودفعت بها للموظفة غاضبًا:

"خلاص اتفضلي الخمسين جنيه اللي عاوزينها...من فضلكم الحقوا الحاجة بتموت!".

اتجهت الموظفة نحو الهاتف لتبدأ في إجراء مكالماتها تمهيدًا لنقل والدة "أروى" لغرفة الطوارئ..

هدأت "أروى" قليلًا بعد ذلك الموقف، واتجهت لتجلس على أحد مقاعد الاستقبال متكئة على ساعدي الأيمن..جلسنا وبدأت في التقاط أنفاسها بروية...ثم بدأت في التحدث بصوتها الخفيض:

"مش عارفة أشكرك إزاي يا أدهم...آسفة جدًا على كل التعب اللي سببتهولك انهارده..

- "متقوليش كده يا "أروى"..بالعكس..أنا اللي آسف..آسف على الغياب وآسف على نرفزتي عليكي وآسف إني كنت السبب في نزول دمعة واحدة من عينك..عاوزك تسامحيني بجد".

نظرت "أروى" لي بحنان امتزج به الحزن، ومع دموعها التي بدأت ثانية في الانهمار من عينيها الخضراوين، قالت:

– "أنا مش عارفة إنت زعقت لي ليه ساعتها...بس إنت مش عارف أنا بحبك قد إيه، عشان كده زعلت لما زعقتلي بالشكل دا..حسيتك حد تاني.. مش معقولة أدهم اللي يتصرف معايا كده..."

أكملت بعد تجفيف دموعها:

– "كنت مستنية إنك إنت اللي تبدأ بالكلام بعد ما تروق وتهدا ...لكن لما ماما تعبت مقدرتش أفكر في حد غيرك...إنت عارف إني مليش ف الدنيا دي غيرك بعد ماما يا أدهم؟"

احتضنتها مربتًا على رأسها بينما أكملت كلامها قائلة:

– "أنا مقدرة الضغوط اللي عليك بسبب وفاة جدك وبسبب اللي حصل لنا في الشغل..عاوزاك تعرف إني جنبك مهما حصل وهفضل جنبك لحد ما كل حاجة تبقى أحسن..."

عندما أتى ذكر موضوع وفاة جدي على لسانها، جال بخاطري لوهلة أن أخبرها بحقيقة عودته سالمًا، لكن لا أدري لماذا تراجعت عن ذلك الخاطر، وقررت الاحتفاظ بذلك السر مؤقتًا..

أجبتها مبتسمًا:

– "أنا فعلًا آسف..وإنت بكلامك قلتي كل اللي عاوز أقوله..بس أوعدك أن دي تكون آخر مرة تحصل مني..." ثم صمتّ لفترة مكملًا:

– "صحيح...مقلتليش إيه اللي حصل لماما؟"

–"كنا قاعدين مع بعض في الصالة بنتفرج على التليفزيون..وفجأة لقيتها مش بترد على كلامي، اتخضيت وقمت أشوفها لقيتها مغمى عليها، وجسمها نشف مرة واحدة وقلبها بيدق بسرعة..معرفتش أعمل إيه، قمت متصلة بيك على طول".

شعرت بالقلق لما قالته، ولكني طمأنتها في انتظار خروج الطبيب ليخبرنا بأي تفاصيل...

رنّ هاتف "أروى" بمقطع غنائي لأم كلثوم..فقامت للرد على الهاتف، بعدها بدقيقتين خرج ناحيتي طبيب في الأربعينيات من عمره، وقد بدا الإرهاق واضحًا على وجهه الأسمر..بعد أن أخبرته بقرابتنا لمريضته، بدأ في الكلام موجهًا سؤاله لي:

"هي الحاجة مش بتاخد الأنسولين في معاده ليه؟"

دهشت وتمتمت:

"أنسولين! إزاي؟ ماما معندهاش سكر!"

هز الطبيب رأسه نافيًا، ثم قال:

"بالعكس..الحاجة عندها سكر بقالها أكتر من أربع شهور.."

انتهت "أروى" من مكالمتها، فعادت نحونا...قدمتها للطبيب الذي أعاد عليها استفساره الأخير.. وكان رد فعلها مشابهًا لما فعلت..انهارت "أروى" فأسرعت بمساندتها، ووجهت سؤالي لذلك الطبيب مستفسرًا عن وضعها، فأخبرني:

– "واضح إنها ماخدتش الأنسولين بقالها فترة، بالإضافة إنها مش ماشية على النظام الغذائي المعين اللي المفروض تمشي عليه، وكل دا طبعًا رفع من نسبة السكر في دمها، مع شوية جفاف في جسمها لنقص السوائل بسبب القيء وزيادة السكر، وضغط دمها منخفض...دلوقتي إحنا ركبنا لها محاليل وهتاخد جرعات أنسولين بنسب معينة علشان نحاول نرجع السكر لمستواه الطبيعي وضغط دمها يستقر..."

سألته أروى في لهفة:

– "طب أقدر أدخل لها دلوقتي؟"

أجابها الطبيب نافيًا في سرعة:

– "لأ للأسف..حالتها كانت خطرة شوية...مش هينفع تشوفوها انهارده خالص...بكرة الصبح إن شاء الله تقدروا تزوروها...بعد إذنكم".

ثم غادر ردهة الاستقبال عائدًا لغرف الطوارئ، فيما التفتت أروى تجاهي باكيةً مرددة بعض الكلمات المتقطعة..طمأنتها ووعدتها باصطحابها غدًا لزيارة والدتها صباحًا...

بعدها أوصلتها لمترلها، وعدت بعدها للبيت لأجد جدي ما زال غافيًا والورقة لم تُمس أو تتحرك من موضعها...حمدت الله على ذلك، فلقد كنتُ في حالٍ لا يسمح بسرد ما حدث مرة أخرى، ولأكتفي الآن بنوم هانئ بعد ذلك الحدث المفاجئ..وغدًا أخبر جدي بما حدث...

21

اليوم الثاني لي بعد العودة...أستيقظ وما زال إحساس الغرابة ينتابني، أشعر وكأنني لا أنتمي لهذا المكان ولا تربطني به أي صلة...ما زال هناك جزءًا ولو صغيرًا للغاية قد تركته في زنزانة الديماس جعلني أحن للرجوع إليه..أو على الأقل ترك هذا الحاضر والعودة للماضي مرة أخرى...

اتجهت نحو باب الغرفة متثاقلًا لأجد جدي يدلف خارجًا من دورة المياه وقد ابتل ساعداه وقدماه ووجهه بقطرات ماء تساقطت خلفه على أرضية المنزل، نظر إليّ في تعجب وقال:

– "مالك يا أدهم؟ شكلك تعبان ليه؟"

– "لأ دا مجرد إرهاق بسيط، إمبارح نزلت مشوار مفاجئ وإنت نايم هاحكيلك عليه واحنا بنفطر.."

نظر لي لبرهة ثم أومأ برأسه موافقًا ثم طلب مني أن أتوضأ لنصلي معًا...

بعد أن انتهينا من الصلاة وإعداد وجبة الفطور اليومية، جلسنا متقابلين على المائدة نتذوق الطعام الشهي في تلذذ واستمتاع، وبدأت في سرد ما جرى بالأمس..استمع جدي منصتًا حتى فرغت من الكلام ليجيبني بهدوء:

– "واجب فعلًا إنك توصل "أروى" انهارده لوالدها، وخد معاك بوكيه ورد واطمن على صحتها..إنت من كلامك واضح إن "أروى" دي بنت ناس محترمين.."

هززت رأسي توكيدًا لكلامه ثم أجبت في سرعة:

– "جدًا...إن شاء الله أبقى أعزمها هنا في مرة وهتشوفها وجهًا لوجه، وتعرف أخلاقها كويس.."

صمت جدي وقتها وقطّب جبينه قليلًا، ثم استند بظهره على المقعد، استشعرت قليلًا من القلق على محياه، فسألته عما يدور بذهنه..

– "بالنسبة لموضوع إشهار خبر إني لسه عايش...أنا عاوزك متقولش لحد إني رجعت...."

شعرت بالدهشة لذلك، فلم أملك إلا أن أصمت، وإن ظهرت في عيني أمارات التعجب...

عاجلني جدي بالجواب قائلًا:

– "عارف إنك مندهش من القرار دا...بس فعلًا أنا عاوز أفضل ميت في نظر الناس...عاوز أتخلص من أي موانع تعطلني عن استكمال تجاربي وسفري للماضي، ولو الناس عرفت حقيقة عدم وفاتي، هتحصل مشاكل وأحداث كتير هتعطلني جدًا...دا غير إن العمر خلاص...اللي جاي مش أكتر من اللي راح...فمفيش فرق إني حي أو ميت".

عاجلته بالدعاء له بطول العمر، وحاولت مناقشته مرة أخرى في ذلك القرار، لكنني وجدت منه رفضًا قاطعًا لمجرد الحوار حول تلك النقطة...فآثرت الصمت عن ذلك، على أن أرجئ ذلك النقاش لوقت أفضل...

انتهينا من الفطور، فأخبرت جدي بضرورة نزولي في أسرع وقت لأتمكن من الوصول لـ"أروى" في الوقت المناسب قبل أن ننطلق في طريقنا لوالدها، وخلال دقائق معدودة ارتديت ملابسي، وأجريتُ اتصالًا بـ"أروى" اتفقنا فيه على موعد ومكان اللقاء...

***

جاءت "أروى" لمكان تقابلنا مثلما اتفقنا، شكرتني على باقة الورد التي أحضرها معي ثم توجهنا بعدها إلى المستشفى، وما إن وصلنا، وجدت في استقبالنا نفس موظفة الاستقبال باردة المشاعر التي قابلتنا بالأمس، ويبدو أنها تذكرت "أروى" وما فعلته معها فتحولت ابتسامتها إلى عبوس ثم أخبرتنا في ضيق بأننا يمكننا زيارة والدة أروى بغرفتها رقم 351... أسرعنا نحو المصعد لنصل إليها وبمجرد أن فُتح

الباب فوجئت بتلك الموظفة تناديني..تركت "أروى" مضطرًا لعدم إمكان ترك المصعد مفتوحًا لفترة طويلة مع وجود زوار آخرين بدؤوا في التململ عندما رأوا ما يجري.. فذهبت لأرى ماذا تريد تلك السيدة المملة...

– "فيه شوية مصاريف محتاجينها لزوم الأوضة والمحاليل وشوية حاجات تانية.."

حاولت أن أحافظ على أعصابي قائلًا:

"طب هي المصاريف دي مستعجلة؟"

أجابت بابتسامة مصطنعة:

– "لأ..حضرتك ممكن تدفعها في أي وقت قبل ما الحاجة تمشي.."

أوشكت على الانفجار فيها بعد تلك الإجابة المستفزة...ها قد تأخرت لدقائق بسبب تعنت تلك السيدة..

أجبتها:

– "حاضر...الفلوس هتكون عندكم وإحنا نازلين بعد شوية..."

ثم انطلقت ناحية السلم ولم أنتظر المصعد مرة أخرى علها تخترع شيئًا آخر تستخدمه في إثارة غضبي...ارتقيت درجات السلم نحو الغرفة وقد أدركت أول ما سأفعله في حالة شرائي سلاح آلي... سأخلص العالم من شرور تلك الموظفة!

وصلت أخيرًا إلى الغرفة 351، طرقت الباب فأتاني صوت "أروى" من الداخل...ولجت في هدوء مقدمًا باقة الورود أمامي، وفي نبرة هادئة ألقيت عليهم السلام..

"إزيك يا أدهم يا بني...تعبت نفسك ليه وجبت الورد الجميل دا؟"

"حمد الله على سلامتك يا أمي ودا أقل شيء والله...إزي صحتك دلوقتي؟"

"الحمد لله يا بني...ربنا قدّر ولطف.."

استمر الحوار بيننا لربع ساعة تحادثنا فيها عن صحة والده "أروى" وعن نصائح الطبيب لها بضرورة المداومة على دوائها، وتطور النقاش لاستياء "أروى" من أمها لعدم إخبارها بحقيقة إصابتها بمرض السكر..استشعرت بالحرج عندما بدؤوا في التطرق لجوانب شخصية قليلًا من حياتهما، فاستأذنت للرحيل متعللًا بموضوع مهم...وتركت "أروى" على راحتها مع والدتها متمنيًا لها الشفاء العاجل...

استقللت المصعد نزولًا لبهو الاستقبال...أخرجت الحافظة من جيبي، وأعددت النقود لإيداعها خزينة المستشفى..اتجهت نحو الموظفة راسمًا على وجهي ابتسامة تخفي بركانًا من الاشمئزاز يكفي لإحراق تلك السيدة السمجة في ثوانٍ قليلة...

***

عدت للمنزل، لأجد جدي قد قبع بصومعته بغرفة المكتب، وبدأ في وضع التوصيلات الخاصة بشحن الساعة لإعدادها لرحلة جديدة يعلم الله وحده لأين ستكون وجهتها...

انتبه جدي لوجودي فحيّاني بكل سرور، ثم طلب مني المجيء لنتحاور قليلًا...

"في البداية، إيه أخبار والده أروى؟"

"الحمد لله أحسن، واتكلمت معاها وعجبهم الورد أوي..."

"طيب كويس...أخبارك إنت إيه يا أدهم؟"

اندهشت قليلًا...لكني هززت رأسي وقلت:

– "كويس الحمد لله...سعيد إننا رجعنا أخيرًا لبيتنا...وإنك بخير ومعايا".

نظر إليّ جدي بعينين ثاقبتين، شعرت بهما تنفذان إلى أعماقي فتطلع على أسرار روحي المدفونة..

– "متأكد يا أدهم؟ مش حاسس بشيء غريب؟ كأنك في مكان مش مكانك؟ في زمن مش زمنك؟"

نظرت له بكل دهشة...بالفعل كان جدي وكأنه قد قرأ أفكاري...ووجدت لمحة انتظار خاطفة على وجه جدي...ليستكمل كلامه قائلًا:

– "متقلقش...أنا جالي نفس الشعور دا بعد أول مرة سافرت فيها للماضي...جسمنا يا أدهم بيبقى كأنه حاسس بمكانه الصح

فين... وبيبقى متواصل بالحاضر اللي عايش فيه، والعقل...العقل بيبقى متخيل حاجات ومعتقد فيها بقوة، لكن لما سافرنا للماضي، انتقلنا من مكاننا وزمننا لمكان وزمان تاني، مفيش أي صلة بينه وبين حاضرنا...ساعتها جسمنا بتتقلب موازينه الداخلية، ويبدأ العقل في القلق ويحسسك بالغلط اللي هو فيه، واللخبطة اللي بتحصل دي عاوزك متديهاش أي اهتمام..دي كلها أعراض جانبية بسيطة لازم تتكيف معاها علشان نوصل للإنجاز الرهيب اللي إحنا بنوصل له كل مرة..فاهمني يا أدهم؟"

أجبته سريعًا بالموافقة ثم صمتّ...لم أرد أن يتوقف جدي عن الكلام، وأردت الاستمرار في نهل العلم منه...وأعتقد أنه شعر مني بذلك أيضًا، فأكمل كلامه قائلًا:

– "لازم تستعد لأي مخاطر..إحنا هنروح أزمنة مش المفروض نبقى فيها من الأساس، يعني عينا تبقى في وسط راسنا...لأن الغلطة مش هينفع تتصلح...وتاني حاجة عاوزك تعرفها في رحلاتنا يا أدهم... عاوزك تلغي كل اللي سمعته أو قرأته أو متأكد منه بخصوص التاريخ...التاريخ اللي إحنا دارسينه وبنردد كلامه اللي حفظناه إحنا وأجيال كتيرة قبلنا وبعدنا...التاريخ دا أغلبه كدب...التاريخ ممكن يتزور بسهولة في وقته أو بعده بسنين أو قرون...في حاضرنا دلوقتي الأحداث بتتزيف في التو واللحظة...تخيل كده أحفادك لما يدرسوا حاضرنا على أنه ماضيهم، وشوف كمية الأحداث الغلط اللي حيؤمنوا بوجودها أو صحتها؟!

عاوزك تعرف إن اللي كتب أحداث التاريخ كان إنسان..وما دام إنسان يبقى لازم هيغلط...دورنا نعرف الصح من الغلط، واحمد ربنا إن الفرصة في إيدك إنك تعرف التاريخ من مصدره الصحيح...دي نعمة غالية مش عند حد غيرك، نعمة اتقتل بسببها ناس...ودا يخليني أفكرك بضرورة الحفاظ على سرية اللي إحنا بنعمله دا يا أدهم...محدش يعرف ولا حرف عن اللي بيحصل..ولا أصحابك ولا عمك ولا أقرب الناس ليك..ولا حتى "أروى"...تمام؟"

للمرة الثانية هززت رأسي موافقًا وقد صرت في قمة تشوقي للمزيد...

صمت جدي وقام من على مقعده متجهًا نحو مكتبته الضخمة...وقف لبرهة ساد فيها الصمت أرجاء المكان...ثم سحب كتابًا سميك الغلاف أزرق اللون...وبدأ في تصفحه في هدوء...ثم سألني فجأة:

– "تعرف إيه عن حضارة الأندلس يا أدهم؟"

***

22

نظرت لجدي مبتسمًا ثم أجبته:

- "الأندلس...ممم...معرفش عنها الكتير للأسف، لكن أكيد عارف أنها فترة مهمة من فترات تاريخ المسلمين، اتعمل فيها حضارة رائعة ما زالت بعض آثارها موجودة لحد دلوقتي، وبعدين للأسف مع الوقت وضعف الحكام وكثرة الحروب انتهت الحضارة دي وضاعت من أيدي العرب للأبد.."

صمت جدي قليلًا وما زالت عيناه تنظران لذلك الكتاب الأزرق بكل تركيز، ثم بدأ كلامه..

- "كلامك صحيح فعلًا، حضارة المسلمين في الأندلس من الفترات الجميلة في تاريخ الفتوحات..لكنها زي أي فترة من تاريخ العالم...حصل فيها تزوير وتزييف وطمس للحقائق بقصد أو من غير قصد..تخيل معايا المثال دا...

لو أنا وانت كنا في العصر الحجري...عايشين في كهوف صخرية، والبيئة كلها ضدك بجوها المتقلب وديناصوراتها وكل الكائنات الخطرة اللي ممكن تواجهك...إنت قاعد جوا الكهف وشايل هم الديناصور اللي ممكن يهاجمك إنت وقبيلتك...قمت واخد طوبة من على الأرض، ورسمت بيها أمنياتك على الحيطة...إنك ماسك سلاح وبتقتل بيه الديناصور اللي ياما أكل من عائلتك كتير..

ويمر الزمن ويجي وقتنا دا..مستكشف متحمس يلاقي الكهف ويشوف الرسومات...ويخرج بتحليل عبقري...إن الإنسان القديم زمان قدر أنه يهاجم الديناصور ويقتله في بعض الأحيان....

إيه رأيك بأه في التاريخ المزور دا؟ هل الرسم دا لوحده كافي لتوضيح الماضي؟ جرب الدليل دا على أي شيء تسمعه أو تقراه بخصوص الماضي...وكل ما الحدث يبقى قديم...كل ما الشك جواك لازم يبقى أكبر"..

ملأني كلام جدي بالحيرة، فلم أتمكن من التفوه بحرف واحد...صمت جدي ثم فتح ذلك الكتاب وبدأ في سرد بعض مقاطعه:

– "تاريخ الأندلس معقد جدًا، ومليء بالصراعات والمؤامرات والثورات، وإن تخلله فترات عديدة ظهر فيها العلماء والمستنيرون وأعلام الفكر العربي والإسلامي، إلا أنه من المثبت أن فترات أخرى ساد فيها العبث والظلم و قلب الحقائق بهدف تمجيد حكامٍ أو إضافة مكانة زائفة لأحداث ربما لم تكن بتلك العظمة فعلًا...

نأتي للبداية... في العام 92 هجرية..قامت معركة "برباط" حيث واجه اثنا عشر ألف من جيش المسلمين بقيادة طارق بن زياد حوالي مائة ألف من جيش القوط يقودهم حاكم الأندلس نفسه...هنا تذكر كتب التاريخ أن "طارق بن زياد" خطب فيهم خطبة حماسية جدًا...لكن يأتي هنا جزء تزييف وقائع التاريخ، إما بقصد إضافة مهابة مزعومة أو من فرط موالاة كاتب الوقائع لصانع الحدث...حيث زعم البعض أن طارق بن زياد قام بإحراق السفن التي أقلت الجيش خلال البحر ليجعلهم مجبرين على مقابلة جيش الأندلسيين...وتأتي المقولة الشهيرة "البحر خلفكم والعدو أمامكم"...ولكن اتضح بعد ذلك في كتابات عديد من كبار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين أن حادثة إحراق السفن لم تحدث وتعتبر غير ثابتة تاريخيًا..ونفى أكثر من مؤرخ تلك الخطبة الحماسية نظرًا للأصول البربرية لطارق، بينما الخطبة من فرط بلاغتها اعتقد الخبراء أنها تعود لزمن امرئ القيس..."

أغلق جدي صفحات الكتاب بعد انتهى من ذلك المقطع.. ونظر لي في صمت...ثم أكمل:

– "المشكلة أن تاريخ الأندلس تاريخ معقد وحساس...كتب فيه مؤرخين كبار، وطالته للأسف وجهات النظر الشخصية والعقائدية في أوقات كتيرة...أنا معنديش شك في دور المسلمين في الأندلس...لكني مندهش من تصوير المؤرخين للموضوع على أن الجنود اللي فتحوا بلاد الأندلس كانوا مجموعة ملايكة...

أكيد حصلت مجازر وحصلت معارك دموية مات فيها الكتير والكتير من الطرفين لأنها حرب.. وكتب التاريخ بتذكر أحداث زي دي في أي معركة بتحصل في أي مكان في الأرض...قادة جيوش المسلمين اعتمدوا في بعض فتوحاتهم لبلاد الأندلس على تسهيلات أهالي البلاد أو مفاوضات بينهم وبين القادة أو حتى مؤامرات خفية لفتح بعض الأماكن صعبة الاقتحام..."

قاطعته مندهشًا:

– "بس إيه مصلحة اللي يكتب الأحداث دي إنه يخبي الحقيقة؟! وهل دا هيفيد حضارة المسلمين فعلًا؟ إنه يكدب كدبة هتستمر آلاف السنين؟!"

أجابني جدي وقد أطرق برأسه:

– "للأسف مش كل المؤرخين كانوا صادقين في نواياهم...بعضهم كان بينافق الحكام بكتاباته، تخيل لو إنه قال إن الحاكم دا كان ضعيف أو كان بيهتم بالقصور الفاخرة والجواري والحفلات بدل الاهتمام بالبلد وأحوال رعيته...أكيد كان هيتعدم أو يتم نفيه خارج البلد...بالإضافة أنه بعض المؤرخين كانوا معروفين بانتمائهم لأفكار سياسية معينة وقتها أو لانتماءات عرقية مخالفة لانتماء الحاكم...علشان كده هتلاقي يا إما مدح مبالغ فيه للحاكم وللأمراء...يا إما ذم وتشويه وتزييف كبير لحقيقة شخصية الحاكم..."

سألته وقد بدأ اليأس يتملكني:

– "طب وإيه الحل يعني؟ الأندلس كانت فترة عظيمة ولا فترة عادية تم صنع هالة مزيفة ليها؟ فين الحقيقة؟"

قطب جدي جبينه وقال:

– "صعب إننا نقول كلمة "الحقيقة" دي.. بس الثابت في أي موضوع أن أي فترة زمنية فيها الجيد وفيها السيئ...والحكام و القادة هم بشر زيهم زي أي حد تاني، لا هما ملايكة نازلين من السما، ولا هما شياطين طالعين من باطن الأرض..لازم لما نقرا عن أي فترة تاريخية، وعلى سبيل المثال فترة الأندلس، نهتم بقراءة الرأي والرأي الآخر...وفي الأخر عقلنا بيحكم...أنا عن نفسي شايف إن الفترة دي شهدت تطور كبير في حضارة المسلمين.. وفتوحاتهم في جنوب أوروبا اللي امتدت وتقهقرت أكتر من مرة، تدل على إمكانيات حربية كبيرة للمسلمين، وأغلب اللي اتكتب بالحق عن الفترات دي في صالح المسلمين...لكن للأسف، الطبيعة البشرية بتفرض سلوكياتها وكان لازم التطور والتفوق دا يوصل لنهايته زي أي حاجة في الدنيا دي...الزوال والانتهاء..."

جاء دوري في سؤاله للمرة الثالثة:

"دلوقتي إحنا رحلتنا هتكون إمتى في زمن الأندلس؟ وفين؟"

وكأنما انتظر جدي ذلك السؤال..بمجرد أن انتهيت منه أجابني بسرعة قائلًا:

- "أنا عندي فكرتين...الفكرة الأولى إننا نسافر لأواخر زمن الأندلس، علشان نعرف أساب سقوطها فعلًا بعيدًا عن أي كتابات تاريخية بتزايد على الفترة دي...وعلشان نقدر نتأكد من أكبر قدر من الأحداث التاريخية اللي حصلت في تاريخ دولة الأندلس..."

أجبته بالموافقة على تلك الفكرة..لكن فضولي أجبرني على السؤال عن فكرته الأخرى..فأجابني:

- "الفكرة التانية ودي اللي أنا بميل ليها أكتر..إننا نسافر لوقت كانت فيه مظاهر الرقي والتحضر في الدولة الأندلسية...علشان نعاين في الواقع مستوى الحضارة الأندلسية في أوج فتراتها... وبصراحة... بعد رحلة الحجاج محتاج رحلة هادية من غير سجون أو مشاكل.."

قهقه جدي ضاحكًا وبادلته الضحك أيضًا بعد جملته تلك...ثم جاءت فترة صمت قصيرة وكأن كلًا منا يفكر في الخيار الأنسب.. لأقطع أنا ذلك الصمت بموافقتي على الفكرة الثانية..فانتاب جدي السرور وأعلن بدء استعدادنا لتلك الرحلة الهادئة - على حد قوله.

***

انتابتني الحماسة بالفعل تلك المرة...فتلك هي الرحلة الأولى لي التي أبدؤها برفقة جدي..وسنسافر فيها لفترة زمنية مثيرة للاهتمام...بدأنا في الأيام التالية قراءة المزيد والمزيد عن فترة الأندلس...اكتشفت بالفعل أن معرفتي بتلك الفترة التاريخية تقترب من الصفر بالمائة...بداية منذ فترة دخول المسلمين للأندلس بعدما عبروا للضفة الثانية، والنزول بأرض إسبانيا، وتسهيل بعض الأمراء

للعرب أن يدخلوا مدينه "سبته"، واستكمال فتح بلاد الأندلس مقابل إعطائهم حقوقهم من الأراضي اللي تم الاستيلاء عليها من قبل بعض الأمراء الأسبان الآخرين...ثم فترة فتوحات "موسى بن نصير" الناجحة بجنوب إسبانيا، يليها عصر الولاة بولاياته الاثنتين والعشرين التي لم تسلم من بعض ثورات الخوارج في الشمال الأفريقي، وبعض الحروب بين المسلمين والملوك الأوربيين وقتها..

ثم يأتي العصر الأموي بمميزاته وعيوبه، بدايةً بعبد الرحمن الداخل المسمى ب"صقر قريش"، والخمس وعشرين ثورة التي قامت ضده وصمد بعدها، ليصبح حكمه بداية لدولة الأندلس الحديثة بالفعل، حيث تطورت الدولة، وانتشر البناء والتعمير والفن والعلوم المختلفة ثم انتشر الفساد والتراخي والفتن والثورات كعادة أي نظام تزامنًا مع سقوط الدولة الأموية وبداية عصر الطوائف عندما تمزقت الأندلس إلى اثنتي وعشرين دويلة...

بعدها جاء عصر المرابطين ومثلما قال المؤرخون..قدوم دولة المرابطين ساعد على تأخير سقوط الأندلس نحو أربعة قرون..انتشر العلم واستقرت الأحوال تقريبًا، لكن تظل الصراعات السياسية جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الأندلس، فتسقط دولة المرابطين ويأتي عصر دولة الموحدين التي تسقط في النهاية أيضًا، وتتفكك الأندلس وتنتهي بسقوط "غرناطة" وضياع مُلك الأندلس من أيدي خلفاء المسلمين...

نظرة سريعة لتاريخ الأندلس تلك التي قمت بها، وإن دلت على شيء فهي تدل على دور الصراع في تفتيت قوة أي نظام...التماسك

السياسي لا بد له من تماسك حربي واجتماعي وديني، ولكن السعي وراء مكاسب تافهة أو الدخول في معارك جانبية يقلل من قوة أي دولة...

ضاعت الأندلس من أيدينا بسبب انشغالنا عنها...وأنا لا أظن أن خسارتنا الأكثر فداحة كانت بسبب موقعها الجغرافي أو كنوزها المادية..ولكن في تفريطنا في مكانتها الحضارية والانشغال عن العلم والفن بالسياسة والحكم...

***

مرت الأيام وانتهت عملية شحن الآلة، وصرنا جاهزين للسفر... بعد عدة جلسات أخرى تباحثنا فيها الأحداث التاريخية الأندلسية بدقة شديدة..قرر جدي أننا سنسافر لإحدى أعوام حكم الامير"عبد الرحمن بن الحكم" أو كما لُقب بالأوسط.. لم أعلم سبب اختيار جدي لذلك الحاكم بالذات.. ولذلك العام بالتحديد.. ولكنه ابتسم فقط واكتفى بجمله بسيطة..

– "الفترة دي كان فيها ثورة في العادات والتقاليد الحضارية بسبب شخصية نادر إنها تتكرر في الزمن...حتعرف هو مين لما نوصل".

لم أربط بين تلك الجملة وبين ما قرأته في كتب التاريخ...لم أدر وقتها هوية ذلك الرجل الذي قصده جدي...فلتلك الفترة أبطال عدة، يحار المرء في الاختيار بينهم..

حسنًا.. إنها الليلة المنشودة...الآلة جاهزة، ونحن جاهزون بما قرأناه..انتهيت مع جدي من مناقشة كل تفاصيل الرحلة واتفقنا على هويتنا المزعومة في تلك الفترة... أقف الآن مع جدي بغرفة مكتبه.. الأبواب موصدة..المكان هادئ تمامًا لا يقطع ذلك الصمت إلا صوت تنفسي المتصاعد بفضل حماسي المتقد... وابتسامة من جدي تطمئنني قليلًا وتعدني لما سأراه بعد قليل...

إن هي إلا بعض دقائق في وقت حاضرنا، ولكنها ساعات عديدة من ماضينا السحيق...

انتهى جدي من إعداد إحداثيات الموقع والزمان...ولا يتبقى إلا ضغط زر توليد الممر الدودي..حينها نظر لي جدي بثبات وسألني:

– "مستعد يا أدهم؟"

ترددت لثوانٍ ثم أجبته:

– "مستعد..."

حينها ابتسم جدي مرة أخرى ثم ناولني الساعة طالبًا مني الضغط على زر البدء..

– "اتفضل شرف البدء المرة دي....دي رحلتك الأولى فعلًا"

انتابتني الحماسة بشدة تلك المرة...ثم أمسكت الساعة بقوة وضغطت الزر...لقد بدأت الرحلة ولا مفر منها، حسنًا...فلتبدأ رحلتي التي لا أعلم نهايتها...

ها هو الممر يتكون أمامنا...نخطو بأقدامنا لزمن الأندلس...يجذبنا الممر بقوة جاذبيته الخارقة لتبدأ جزيئاتنا في التفكك والانتقال لزمن ومكان آخر يبعد عنا آلاف الأميال ومئات السنوات...

بعد انضغاط وانجذاب شديدين...تعلن مضيفة الطيران بداخل عقلي عن وصولنا بسلام لأرض مدينة قرطبة..

أهلًا بكم في أرض الأندلس...نشكركم على استقلالكم خطوطنا الجوية...ونتمنى لكم رحلة سعيدة..

***

23

إذن فهذه هي"قرطبة"... قرأت عنها وانتابتني الحماسة لرؤيتها..ولكن شتان بين الرؤية بعين الخيال والرؤية بعين الحقيقة...العام هو الـ216 هجرية..أي ما يساوي السنة العاشرة من حكم "عبد الرحمن الأوسط" أو "عبد الرحمن الثاني" أو "أبو المطرف عبد الرحمن بن الحكم".. تعددت الأسماء والرجل واحدٌ..

انتقلنا لإحدى السهول الصغيرة بالقرب من "قرطبة"...مكان ناءٍ بعيدٍ عن مرأى العيون؛ لنتجنب ما قد ينغص علينا رحلتنا، ويتسبب في كشف سرنا...وبمجرد الوصول والاطمئنان على سلامتنا وجاهزيتنا للرحلة، أمرني جدي باتباعه لنبدأ استكشاف تلك الفترة البديعة من تاريخ العرب جميعًا...

خبأت الساعة بجيب ردائي، الذي حاولت أن أجعله بسيطًا لا يثير شبهة أو ريبة من يقابلنا...وبدأ جدي في إملاء نصائحه وإرشاداته..

– "هنقول إننا مسافرين قادمين من مصر..وإننا في طريقنا لشمال الأندلس ووجب مرورنا على قرطبة...أنا هانتحل شخصية مؤرخ علشان أقدر أسأل الناس براحتي..وانت هتكون مساعدي"

أومئ برأسي إيجابًا، وأتبع خطواته نحو مدينة "قرطبة"...الطريق تفترشه الأعشاب والحصى، وعلى يسارنا يتهادى نهر الوادي الكبير بمياهه العظيمة مختالًا في هدوء وإن اضطربت أعماقه...

من ارتفاع الشمس في السماء خمنت أننا في وقت قبل الظهيرة بساعات قليلة..الجو هادئ والرياح متوسطة القوة فلا تتمايل بسببها الأشجار ولا تسكن..تكتفي فقط باهتزازات رقيقة وكأنها تناجينا وترسل سلامها إلينا...

سرت بجانب جدي لدقائق، ثم لاحت لنا من بعيد مدينة "قرطبة" بسورها العالي وبواباتها العظيمة... هي كالدُرّة وسط أشجار الزيتون، بالفعل تستحق كل تلك الأوصاف التي قيلت فيها، وعبارات المدح التي كيلت إليها...عاصمة الحضارة والعلوم والفنون في دولة الأندلس...

اقتربنا أكثر وأكثر من أسوار"قرطبة" والشوق يقتلني، نرتقي بأقدامنا الطريق إليها عبر سهول سفح جبل العروس..وبالفعل خلال دقائق معدودة، بدأنا في الاندساس وسط الجموع السائرة إلى باب المدينة الكبير..

استحوذ عليَّ المشهد لشده جماله..ذلك السور العظيم ببواباته الضخمة، والحراس بعتادهم على كل بوابة، والناس من حولنا

مختلفون في هيئاتهم وملابسهم، منهم الراجل ومنهم الراكب، منهم من امتطى دابة أو بغلة صغيرة، ومنهم على صهوة جواد عربي أصيل...وبالرغم من اختلاف الهيئات، ولكن اتسم جميعهم بالأناقة وحسن المظهر كما قيل عن أهل "قرطبة" في سائر الكتب القديمة...

عبرنا البوابة وإعجابي يزداد بـــ"قرطبة"، البيوت مبنية بنظام يدخل السرور على النفس، مزينة بالنباتات والورود..الأشجار كثيفة بالشوارع والطرقات، الصفاء والنظافة في كل مكان، والزخارف الفنية تغطي جدران وأبواب المباني من حولنا...

أمسك جدي بيدي اليمنى وقال:

– "استعد.. جولتنا هتبدأ.. في البداية لازم نتجه للسوق.. السوق دايمًا هو المصدر الأول لمعرفة خصائص الزمن اللي احنا فيه، بتلاقي فيه أغلب اللي عاوز تعرفه وبيبقى هو حجر الأساس للرحلة، وبعدها نقدر نشوف معالم المدينة إزاي..."

– "ماشي..طب نسأل مين عن السوق؟"

– "إحنا مش محتاجين نسأل...السوق معروف بالزحمة..والناس كلها أغلب تواجدها هناك...يبقى دا طريق السوق...وصحيح...من دلوقتي حنتكلم باللغة العربية الفصحى...أهل الأندلس لهجاتهم كتيرة وأغلبها صعب علينا...مفيش أحسن من الفصحى اللي تقدر تخليهم يفهمونا...تمام؟"

– "حسنًا يا جدي"

ضحك جدي ضحكة قصيرة ثم بدأنا بعدها اتجاهنا نحو سوق"قرطبة"...

***

شتان بين رحلتي السابقة لمدينة "واسط" العراقية ورحلتي الحالية بـــ"قرطبة" الأندلسية..وبالرغم من قصر مدة استقراري بذلك المكان والزمان، لكنها نالت مكانتها في قلبي منذ اللحظة الأولى، وكأنها كالحب من أول نظرة...

سوق "قرطبة" ليس بمجرد سوق عادية..إنها عالم آخر فسيح يموج بالحركة والبيع والشراء والبضائع، هناك النخاسون بائعو العبيد والجواري، وهناك بائعو الصوف والحرير وغيره من سائر الأقمشة، بائعو العطور مجاورون لبائعي التوابل الحارة القادمة من بلاد الهند، يجتمع فيها التجار من كل حدب وصوب، فينادي كل تاجرٍ على بضاعته بأبرع الطرق، منهم من ينادي بكلامٍ معسولٍ، ومنهم من يعرضها على العيان ليراها القاصي والداني...

الناس من حولي كثيرون..تختلف ملابسهم وهيئاتهم، فمنهم من يرتدي العمامة على رأسه، ويبدو عليه الوقار، ومنهم من لا يرتديها فترك شعره منسدلًا قليلًا على جبهته وأرسل باقيه خلف أذنيه.. أغلب الناس يرتدون الملابس الملونة في مزيج بديع يريح العيون، وأرديتهم مُوشَّاة بالزخارف الذهبية والنقوش والمنمنمات مثلهم كالمنازل من حولهم....يا الله...بالفعل "قرطبة" قطعة من رياض الجنة!!

أخذنا جولتنا في السوق، وعيناي متعلقتان بما أشاهده لأول مرة في حياتي، بينما بدا على وجه جدي السرور، وإن استمر في التحديق والتأمل بكل ما يراه من تفاصيل لا بد من معالجتها داخل عقله الواعي... لم أستطع منع نفسي من الانسياق و الاستمتاع بروعة المظهر فلم أحلل ما أرى أو أدرس ما يحدث...لم يهمني إلا الارتواء من هذا النبع العذب المسمى "قرطبة"...

ظلت جولتنا في استمرار حتى توسطت الشمس السماء، وارتفع صوت رخيم يدعو لأذان الظهر...ترك أغلب التجار تجاراتهم، وأغلقوا حوانيتهم استعدادًا للصلاة، بينما ظل عدد قليل من التجار ممن يدينون بالديانات الأخرى على أبواب حوانيتهم في انتظار انتهاء الصلاة لمباشرة أعمال البيع والشراء مرة أخرى...

توجهنا للصلاة بذلك المسجد العظيم الواقع بين السوق وقصر الأمير...ذلك المسجد الذي – وإن كان وقتها عظيمًا، لكن في السنوات العديدة بعد ذلك – ستزداد توسعاته وعظمته ومكانته في بلاد الأندلس حتى يصير من أعظم وأكبر مساجد الأندلس وإن لم يكن مساجد المسلمين كلها في ذلك الوقت...

***

توجهنا للصلاة بمسجد "قرطبة" الكبير، وكنت على يقين إنني سأرى ما لم أره من قبل في زخرفة المساجد وعمارتها، و لكن كعادة كل ما أراه في تلك الرحلة، فإنها تفوق كل تصوراتي... منذ دخولي من أحد أبواب المسجد وحولي النقوش والزخارف والتي إن لم تكتمل

بعد، ولكنها تخطف أبصار المصلين بروعتها وإتقانها...صحن المسجد المزروع بأشجار البرتقال ذات الرائحة العطرة كما جرت عاده الأندلسيين في ذلك الوقت..

دلفت بجوار جدي في خشوع إلى داخل المسجد لأكمل تطلعي لسقف المسجد من الداخل وقبته الموشاة بالرسوم وآيات القرآن الكريم بخط عربي أصيل، وأعمدته العديدة بتيجانها المتداخلة في أقواسٍ هندسية بديعة...أي جمالٍ هذا الذي أراه بعيني، وإذا كان كل ذلك الإبداع في زمن لم يتم فيه توسيع ذلك المسجد أو إكمال زخرفته، فما بالك به بعد الانتهاء منه!

انتهينا من الصلاة، وذهب كل شخص لمحل رزقه، وأنا و جدي هائمان نتابع ذلك الزمن البديع في تفاصيله، والعميق بمكانته وأحداثه...عدنا للسوق مرة أخرى، نكمل استكشافنا لحوانيت السوق وبضائع التجار...

بعد جولة طالت لحوالي الساعتين، بدأ الإرهاق ينال منا، والطقس وإن كان معتدلًا، ولكننا بدون مستقر نُريح به أبداننا عناء السفر والانتقال بدون طعام أو ماء يسقي حلقي الجاف...وجدت جدي يشير باتجاه قلب السوق نحو مبنى عريض من دورين على مقربة منا قائلًا:

– "شايف المكان دا؟ أعتقد انه فندق"

نظرت لما يشير إليه، فوجدت على ذلك البيت يافطة خشبية بالية كُتب عليها "خان" بمعنى فندق.. فأكدت توقعه بهز رأسي واتجهنا نحو ذلك الخان لنحطَّ الرِّحال...

إذ اقتربنا وجدنا الباب شبه مغلق، فطرق جدي على الباب مستفسرًا عن وجود أحد بالداخل، وبعد وهلة، امتدت يد معروقة من خلال الباب لتنفتح ضلفتيه على رجل عجوز زحف الصلع على رأسه، كث اللحية والشارب شديد بياضهما..بالرغم من مظهره الواهن، أردف بنبرة واثقة هادئة:

– "حللتم أهلًا ونزلتم سهلًا...أأنتما عابرا سبيل؟"

تولى جدي الحديث كما اتفقنا سابقًا قائلًا:

– "نعم يا سيدي...نحن عابرا سبيل وفي حاجة لمأوى يؤوينا لمدة يومين نرتاح فيهما من عناء سفرنا".

ابتسم العجوز قائلًا:

"تفضلا تفضلا...ستجدان ضالتكما بين ربوع خاني المتواضع".

اقتدانا الرجل لداخل الخان، فوجدناه متسعًا مليئًا بالغرف المتجاورة، وكل غرفة بها بعض الأثاث والمقاعد، والحوائط قد ازدانت بالنقوش والفسيفساء التي أضفت بعضًا من البهجة على المكان..توسط الخان نافورة صغيرة على هيئة صقر مجنح تتدفق شلالات الماء المنهمرة من بين أصابعه لتروي جبالًا مصغرة أسفله...

بينما يصل لأسماعنا صوت الماء، بدأ صاحب الخان في الحديث:

"هذا الخان قد بني منذ سنوات ثلاث بالإضافة للعشرات مثله بأمر من الأمير "عبد الرحمن الثاني" لاستضافة عابري السبيل ضيوف مدينتنا...هنا تجدا المأكل والمشرب والإقامة الهانئة...و إن أردتما إراحة حصانيكما فهناك مستودع لإيواء دواب المسافرين"..

ثم أشار إلى مدخل جانبي وقال: "هذا حمام لتريحا أبدانكم وتتخلصوا من عناء السفر بعد أن يتولى عمالنا فرك جسديكما المرهقين وتفكيك أوصالكما المتشابكة"...

ثم انحنى قليلًا برأسه قائلًا:"أما أنا، خادمكم"مناحيم بن حسداي"، وتحت طوعكم ولدي "جوزيف" وابنتي "إستير"وقتما أردتما شيئًا ستجدانهما طوع بنانكما..."

ثم أخذنا بعد تلك الجولة الصغيرة نحو غرفتنا لنجدها غرفة واسعة نسبيًا، وبها فراشان وثيران ومائدة صغيرة ومقعدان..."أرجو أن يسركم وجودكم معنا". قالها بنبرة دافئة ظهرت فيها المودة...

بعد أن أغلقنا باب غرفتنا..سألت جدي باستغراب:

– "خدت بالك من اسم الراجل"؟

أجابني جدي في صمت بالإيجاب...أعدت سؤالي عليه..فأجابني تلك المرة قائلًا:

– "خلي انت بالك إن اليهود في العصر دا كان ليهم مكانة كبيرة، كان فيه منهم الوزرا ومنهم العلماء والحكماء، وأغلب كبار التجار في السوق حتلاقيهم يهود...اليهود فضلوا متقدرين في

الأندلس لغاية ما بدأت الدولة في الانهيار والحماية عليهم بقت ضعيفة.."

قبل أن أسترسل في الحديث، أوقفني جدي بإشارة من يديه قائلًا: "استريح شوية دلوقتي..لسه قدامنا كام مشوار تاني هنا محتاجين نعملهم قبل اللي هيحصل بكره"...

انتابني الفضول لتلك الكلمات الأخيرة، فسألته عما سيحدث غدًا، بيد أنه اكتفى بابتسامة غامضة وأردف بعدها: "الصبر مفتاح الفرج"....

***

منعني الفضول من النوم في البداية قليلًا، بيد أنه مع مرور الوقت، بدأ النعاس في مداعبة جفوني إلى أن تملكني سلطان النوم تمامًا...استيقظت على يد جدي قائلًا:

– "اصحى يا أدهم، عاوزين نلحق الراجل".

لم أفهم ماذا يقصد بما قاله، فاستنكرت جملته قائلًا: "راجل مين؟"

– "صاحب الخان، من شوية لقيته بيخبط الباب وعازمنا على جلسة سمر معمولة في صحن الخان.."

– "وكمان الباب خبط! معقولة مسمعتش كل دا...أنا نومي خفيف أصلًا!"

رد جدي بابتسامة سريعة: "واضح يا أدهم...شكلك كنت مرهق من اللف انهارده..المهم يالا بينا".

استفقت سريعًا وارتدينا ملابسنا متجهين إلى تلك الجلسة بصحن الخان، فرأينا "مناحيم" العجوز بجانبه شاب يبدو عليه نفس ملامحه...لا بد أنه"جوزيف" ابنه...وجدته يوزع بعض الحلوى أو المُقبِّلات على الجالسين بابتسامة مفتعلة...لا أعلم لماذا، ولكني شعرت بنفور غريب تجاه هذا الفتى، لا يبدو عليه أنه قد ورث أخلاق والده الدمثة...

اتجهنا نحو مقعدين ناحية صاحب الخان العجوز، فرحب بنا الرجل أيّما ترحيب، وناولنا قطعتي الحلوى داعيًا لنا بالهناء...وخلال دقائق، بدأنا في التسامر... لم نعلم بداية حديثهم، ولكن يبدو أن التسامر بينهم كان عن أمور التجارة والترحال...فلقد ظل أحد الجالسين بجانبي يروي قصصًا واجهته أثناء رحلة قافلته التجارية من سواحل إفريقية- أي بلاد المغرب العربي حسب قولهم وقتها ...

وبعدها ظل العجوز "مناحيم" يسأل كل فرد عن قصته، وكيف جاءت به قدماه لـ"قرطبة"، حتى جاء الدور على جدي الذي تنحنح في البداية ثم بدأ يسرد قصته التي قام بتأليفها درءًا للشُّبهات...

***

24

– "أنا جمال المصري...جئتكم من إحدى قرى شمال مصر أنا ومساعدي "الأدهم بن عبد الرحمن"...أعمل بتأريخ وكتابة سير الملوك والأمراء، وأنا في رحلة طويلة أجوب فيها بقاع الأندلس، لأدون فيها ما أراه وأسمعه في كتابٍ لي"...

هز "مناحيم" رأسه قائلًا: "طيبة هي أرض مصر وأهلها الكرام..حدثني عن قريتك يا أخ جمال".

أجابه جدي في هدوء: "قريتي قرية صغيرة قد لا يعرفها أغلب الناس، لكن أهلها ينعمون بالهدوء والاستقرار وراحة البال، يمر بجانبنا نيلنا العظيم، ونأكل من أرضنا ما تنتجه من خضر وفاكهة، فأرضنا وافرة الخير مثل أرض قرطبة تمامًا".

ثم استغل جدي تلك الفرصة ليبادل "مناحيم" السؤال قائلًا: "اعذرني أدون"مناحيم"، مدينتكم مدينة هادئة سالمة لم أرَ فيها ما يعكر الصفو أو يرهق النفس بالرغم من التباين الشديد في أديانكم

ولهجاتكم، وأهلها يتسمون بالكرم والجود، وأرى في أخلاقهم رقيًا وسموًا عن سائر البلدان التي مررتُ بها...فما سرُّ ذلك السلام؟"

ابتسم "مناحيم" وبدأ في الحديث بصوت رزين: "قرطبة مدينتنا جميعًا..لا فرق فينا بين مسلم أو يهودي أو نصراني...لا يمكنني إنكار أن الاختلاط في السكن والتجارة وسائر المعاملات تفرض حتمًا وقوع نزاعات، مما يستوجب تدخل القضاء..وقضاؤنا عادل، يحاكم كل قرطبي تبعًا لديانته...بالعدل والمساواة ارتقى حال مدينتنا، وبحبنا لتلك الأرض ازدهرت حياتنا.."

صمت جدي للحظات ورأسه مُطْرِقٌ يفكر فيما سمعه، ثم وجه لـ"مناحيم" سؤاله الأهم:

– "و ماذا تقول في أميركم "أبي المطرف عبد الرحمن"؟"

اعتدل العجوز في جلسته وبدأ كلامه بجملة بسيطة..."هو حاكم صالح" ثم أكمل قائلًا:

"عشتُ في حكمه عشر سنوات، فلم أرَ إلا الخير والنماء...عادل في حكمه، كريم اليد، لا يردُّ سائلًا أو محرومًا، بنى لنا عديدًا من الديار، وأقام نهضة بسائر البلاد الأندلسية وبقرطبة بشكل خاص...هو من أمر ببناء ذلك الخان، وغيره من مظاهر الرفاهية وله فضل كبير في انصهارنا في وحدة واحدة لا تعرف الفروق والاختلافات...

حمى بلادنا مما يصيبها من ثورات وقلاقل، وامتدت جيوشه بحملاتها تُغير على مدن أعدائنا، وتغنم منها المغانم ثم تعود منها سالمةً كما ذهبت...

هو من رعى الفنانين والشعراء والعلماء في الأندلس، فاستكمل أركان دولتنا، وأقام بنيانها المتين...منذ سنتين جاء رجل بمدينة "طُليطلة" يُدعى"هاشم" ومعروف بـــ"الضراب" نسبةً لعمله أجيرًا عند أحد الحدادين..ذاك الرجل جمع حوله الفقراء وعامة الناس وألّبهم على أميرنا بقصد مهاجمته والاستيلاء على مملكته.."

تملكتني الحماسة فسألت "مناحيم" عن ذلك الرجل: "وماذا حدث بعد ذلك، سيدي مناحيم؟"

أكمل "مناحيم" كلامه مستطردًا:

– "ظلّ هاشم الضرّاب الزعيم النافذ في طُليطلة وجوارها نحو عامين، وراح يُغير على القرى والبلاد من دون تمييز، فيستولي على ما تصل إليه يده، ثم اجتاح منطقة شنتبرية، فثارت غضبة أميرنا المبجل وأمر عامل الثغر الأوسط محمد بن رستم بالقضاء عليه، ودارت معارك عنيفة لأيام بين الطرفين بالقرب من"دورقة"..إلى أن أتت الأخبار من أيام بالنصر وانتهاء خطر "الضراب" نهائيًا بمقتله مع عدد كبير من أتباعه...فأمر الأمير عبد الرحمن بإقامة الاحتفالات بذلك النصر لمدة ثلاثة أيام تبدأ غدًا، ومن حُسن الطالع أن غدًا يوافق يوم عاشوراء...ستكون قرطبة كقطعةٍ من الجنة غدًا"

ابتسمت أنا وجدي الذي أومأ برأسه مؤكدًا وقال: "بل هي بالفعل جنة بأهلها وأشجارها الباسقة"..ثم قضم جزءًا من قطعة الحلوى التي يمسكها بأصابعه، وأظهر الاستحسان، فسأله "مناحيم": "هل أعجبتكم الحلوى؟"

أومأت أنا وجدي كإجابة بنعم..فابتسم قائلًا:

"إنها زريابية، صنعتها ابنتي"إستير" بنفسها".

شكره جدي قائلًا: "اشكر لنا ابنتك، فلقد أجادت صنعها بالفعل"..

أكمل باقي الجالسين تسامرهم مع العجوز "مناحيم" فانتهزت الفرصة لأُحادثَ جدي قليلاً، فاتكأت نحوه بهدوء وهمست له في إذنه ساخرًا: "إزاي أجادت..إنت عارف إيه الأكل دا أصلًا؟"

ضحك جدي ضحكة خافتة، ثم أجابني: "بذمتك مش حاسس إنها أكلة مش غريبة علينا؟"

أجبته: "بصراحة أه...حاسس إنها شبه الزلابيا".

ابتسم جدي بسرعة قائلًا: "هي فعلًا الزلابيا...اسمها كان زريابية..ومع الزمن والوقت اتحورت لكلمة زلابيا"...

كاد جدي أن يبدأ جملة جديدة لكن فضولي سبق كلامه، فخرج مني السؤال الذي رغبت في سؤاله منذ أن أتينا لقرطبة: "طب بالنسبة للراجل اللي انت قلت إنه عمل في الفترة دي ثورة في العادات والتقاليد الحضارية وإنه كان شخصية نادر إنها تتكرر في الزمن...هل

تقصد الأمير عبد الرحمن الأوسط نفسه؟ ولا يكونش قصدك على هاشم الضراب؟"

أجابني جدي قائلًا: "الصبر فضيلة إنت لا تتمتع بيها يا أدهم...كنت ناوي أكمل كلامي وأقولك مين الشخص دا..لكن عقابًا ليك على الفضول دا..هخلي الوقت المناسب هو اللي يكشف لك عن هوية الشخص دا..."

ثم صمت لبرهة متأملًا الندم الظاهر على وجهي، فأكمل: "لكن متتعبش نفسك..الشخص دا مش عبد الرحمن...هو صحيح الأمير عبد الرحمن عمل حاجات كتير أفادت قرطبة والأندلس، لكن الشخص اللي أنا أقصده عمل فعلًا طفرة في عادات وتقاليد الأندلس، وغيّر حاجات كتيرة فيهم للأفضل..وأكيد مقصدش هاشم الضراب...دا يدوبك عمل اضطرابات في مدينة طليطلة واتقتل في سنة 216 هجرية اللي احنا فيها، وفضلت طليطلة مضطربة لغاية سنة 222 هجرية لما انتهت الاضطرابات دي بانتصار عبد الرحمن الأوسط وقادته على كل مناوشات الأهالي في المدينة دي ورجعت لطاعته تاني".. ثم أنهى كلامه بجمله.."متقلقش، أكيد هتعرف الشخصية وتشوفها بكره في الاحتفال...يالا بينا نقوم نرجع لأوضتنا"...وأقرن كلامه بالوقوف مستئذنًا من الجالسين حولنا متعللًا بالشعور بالتعب من عناء السفر الطويل..

***

عدنا لغرفتنا، وجلسنا نتحادث قليلًا ونتباحث ما سمعناه من ذلك العجوز عن عصرهم هذا...صارحت جدي بإحساسي تجاه ذلك الفتى"جوزيف"و شعوري بتصنعه التودد والتقرب إلينا، فأجابني جدي بموافقته على رأيي قائلًا:

– "فعلًا، أنا برضو كنت شايف على وشه إنه بيمثل...حسيت في قلبه الكراهية ناحيتنا..كمسلمين بالذات، لأنه لما كان بيخدم الباقيين من غير المسلمين في القعدة دي كان بيعاملهم بلطف أكتر.."

– "طب تعتقد إيه السبب في كده؟"

– "بالرغم من أن المحبة والمساواة سادت في الزمن دا في الأندلس، ولسه مفيش أي اضطرابات دينية أو انقسامات حصلت في البلاد، إلا أن دا ميمنعش وجود ناس متعصبة لدينها وكارهه لأي دين تاني...التعصب موجود في أي مكان وزمان، ودايمًا المتعصبين دينيًا هم أكتر ناس بتضر دينها أو العقيدة اللي بيؤمنوا بيها..

– "يعني تقصد يا جدي إن في ظل حكم الإسلام للأندلس..كان فيه ناس من معتنقي الأديان التانية كارهين للمسلمين؟"

– "أه طبعًا، و إيه المشكلة؟ مفيش حاجة بيبقى عليها قبول واقتناع بنسبة 100%...لازم يبقى فيه اعتراض، وفي الحالة دي هنا، دول بيعتبروا نفسهم هم أصحاب الأرض فعلًا، وإن المسلمين احتلوا الأرض دي ونشروا حكمهم...فيه ناس رضيت بكده، بل ودخلت في الإسلام عن اقتناع، وعاشت بسلام مع كل اللي حواليها، وناس احتفظت بديانتها، وقدرت تمارسه بحرية بدون أي

مضايقة من أي حد مهما كان، وبدفعه للجزية ليه كل الحقوق والواجبات زي أي مواطن تاني في البلد...وفيه ناس متعصبين من الأديان التلاتة بيعاملوا غيرهم من الديانتين التانيين بكل استفزاز وكراهية..وبالرغم من قلة عددهم إلا أنهم موجودين...ودا واقع لازم يقتنع بيه الناس في زمنهم دا علشان يقدروا يعيشوا في سلام".

استمر كلامنا لساعات، حتى دق الباب دقات هادئة، فكانت فرصة لنستريح من تلك الأحاديث المرهقة...قمت نحو الباب لأفتحه، فوجدت أمامي ملاكًا....

ملاك...هذا هو الوصف الأقرب لها...وجه أبيض بلون اللبن، شعر بني منسدل على كتفيها الصغيرتين، أنف منمنم يعلو فمًا دقيق التكوين مخضبًا بلون أحمر زهري...لكن كل ذلك غير مهم...الأهم كان عينيها...خضراوين...تذكرانني بعيني محبوبتي "أروى"...

ارتبكت الفتاة للحظات ثم قالت بصوت هادئ خجول: "شالوم..أنا "إستير" ابنة أدون"مناحيم"...لقد علم والدي أنكما مسلمان، وغدًا هو يوم عاشوراء الذي تصومون فيه، فأمرني بإرسال وجبة السحور إليكما...دمتما هانئين ومبارك عليكما يوم عاشوراء"

ابتسمت لها قائلًا: "شكرًا لكي، و شكرًا لوالدك"..ثم ساعدتها في وضع الصحون الزجاجية على المائدة الصغيرة التي توسطت غرفتنا...لتخرج بعدها في عجلة بشكل فولى بعض الشيء...

هز جدي رأسه مشيرًا للباب قائلًا: "شفت..دا اللي كنت بتكلم عنه...زي ما هتلاقي المتعصبين في كل مكان وزمان، هتلاقي فيه ناس

محترمة بتبعد عن دماغها التعصب، وبتهتم بشيء واحد بس..إننا كلنا بشر..مهما اختلفت ديانتنا وبلادنا"...

ثم ابتسم: "ياللا نبدأ نتسحر...مكتوبلك تصوم في الماضي".

تضاحكنا وقمنا إلى الأكل الذي كان شهيًّا بالفعل...ذلك العصر امتاز بأمور عديدة، لكني – شخصيًّا وعن تجربة – أشهد أن جودة الطعام فيه من أكثر تلك الأمور صحةً وتوكيدًا...

***

استيقظنا صبيحة اليوم الثاني من رحلتنا...الوقت يمر ومهلة الرحلة تقترب من نصفها، ولم أستطع معرفة تلك الشخصية الغامضة التي سافرنا لهذا العصر من أجلها، و جدي يمارس معي الألاعيب حتى لا أعلم منه من هو ذاك الرجل المبدع...يظل على جملته التي كررها أكثر من مرة...الصبر مفتاح الفرج...

أخبرني جدي أنه من المفضل الخروج للسوق لمشاهدة احتفالات العامة بيوم عاشوراء، واقترح أن أخرج منفردًا لرغبته في ملازمة العجوز"مناحيم" لمعرفة المزيد والمزيد عن ذلك الزمن..

– "واعتبرها فرصة تاخد بيها خبرة في زمن غريب من غير ما ابقى جنبك"..

أثار هذا الاقتراح حماستي وجعلني بالفعل متشوقًا لتلك التجربة..فوافقته على اقتراحه وقمت بالفعل لأبدأ استكشافي لاحتفالات تلك المدينة...

أثناء خروجي من الغرفة وذهابي لأغتسل بحمام الخان، قابلت "جوزيف" فأشرت له برأسي محييًا إياه...لم يرد تحيتي، وظل سائرًا في صمت...شيء عجيب بالفعل!

انتهيت من اغتسالي شاعرًا بالانتعاش والنشاط يسري في أوصالي، ذهبت خارجًا نحو بوابة الخان، فوجدت"جوزيف"جالسًا...رغبت في سؤاله عن الأماكن من حولنا، فبادرته قائلًا:

– "أهلًا بك يا جوزيف..هل بإمكانك مساعدتي؟"

قطب"جوزيف"جبينه متمتمًا بكلمات لم أتوضحها..ثم قال:

– "إنني مشغول الآن أيها الغريب.."

ثم أعقبها بقيامه من مجلسه بعصبية وذهابه إلى إحدى غرف الخان...يا له من شخصية غريبة بالفعل! إذن..فسأعتمد على قدري وحظي في تلك الرحلة الاستكشافية..

– "سيدى!"

التفتت فقابلتني: "إستير"بعينيها الخضراوين...تنحنحت وقالت:

– "اعذر أخي (جوزيف)...فهو يعاني بعض الآلام في معدته اليوم ولم يمكنه العمل...هل أستطيع أن أساعدك؟"

ابتسمت لها قائلًا:

– "شفى الله أخاك من كل سوء...أود أن أعلم أكثر عن أفضل الأماكن للتنزه والشراء بالمدينة هنا.."

أجابتني "إستير"بما أردتُ، ولم تبخل بأي قدر تعلمه عن المدينة مهما قلّت أهميته...دام الحوار بيننا دقائق طوال، ثم استأذنتني في الذهاب لوالدها لمساعدته في إدارة الخان...شكرتها وغادرت الخان نحو السوق لأبدأ استكشافي لتلك الحقبة الزمنية وحدي...

خرجت قاصدًا سوق المدينة، أراقب أفعال الناس من حولي وملابسهم وكلامهم...يا لها من تجربة ممتعة بالفعل! إني في زمان ومكان لم أتخيل أن أراه في واقعي، فهأنا أراه في ماضيه البديع!

الجميع ارتدى أفضل ملابسه احتفالا بعيد يوم عاشوراء، التجار ينادون على بضاعتهم بكل حماسة، الأطفال الصغار يمرحون ويركضون في الطرقات حاملين أوراقًا ملونةً قد ربطوها بحبالٍ في بعضها البعض، فأعطت مظهرًا جميلًا للزينة واللهو...

فيما بعد قرأت أن احتفال الأندلسيين بيوم عاشوراء لم يكن معتادًا لهم، ولكن في عهد أمراء الدولة الأموية بالأندلس، نشروا ذلك الاحتفال كمكايدةٍ للشيعة، الذين يعتبرون هذا اليوم يومًا حزينًا للغاية...

أكملت تجوالي بالسوق، شاهدت مناطق أخرى به غير التي رأيتها مع جدي، وحتى تلك المناطق السابقة بدت أكثر ازدهارًا وتجملًا بمناسبة العيد، ثم دنوت نحو سوق العطارين لينساب إلى أنفي أعجب وأكثر الروائح غرابة، شعرت بالانتشاء لمجرد الاقتراب من ذلك المكان، فما بال تجارها؟

في إحدى جولاتي، وجدت نحو سور المدينة وخارجها مع محلات الدباغين، ويبدو أنهم قد استقروا بذلك المكان لتبتعد الروائح الكريهة للدباغة والجلود عن عامة الناس...

أكملت سيري في المدينة، لأجد مناديًا ينادي في الناس قائلًا: "بأمر من الأمير "عبد الرحمن بن الحكم" أمير قرطبة والأندلس، ومشاركةً له لرعيته بيوم عاشوراء، تُقام اليوم الاحتفالات ومجالس الغناء بقصر الإمارة، ومسموح بدخول عامة الشعب والزوار من البلاد الأخرى...سيفتح باب السدة بعد صلاة العشاء..أدام الله عليكم نعمة الهناء والسرور، وجعل أميرنا و بلادنا في خير و سلام"...

إذن، يجب أن أُعْلِم جدي بهذا الخبر، فلا بد إن كان هذا الاحتفال يضم جميع من بالمدينة، فسيضم كبار القوم، ومنهم الشخصية الغامضة التي يريد جدي أن يراها في ذلك الزمن...قررت إنهاء جولتي والعودة لجدي، خاصة أن الوقت قد قارب على المغرب، وحان وقت الإفطار...

أثناء مروري بالسوق باتجاه الخان، وجدت سيدة سوداء ترتدي ملابس مزركشة تنوعت ألوانها بين الأحمر والأصفر والأزرق السماوي والأخضر الداكن...تضع في أنفها قرطًا ذهبيًا دائري الشكل، وقد فرشت أمامها بساطًا من الخوص الملون بالأخضر والأزرق...أثار شكلها الغريب فضولي، فأدمت النظر تجاهها قليلًا، لأجدها تشير نحوي طالبةً مني المجيء لها...

تقدمت في قلق، أخاف أن تسألني أو تخبرني بشيء بخصوص هذا الزمن، وأنا لا أدري الكثير بعكس جدي...اقتربت حتى صرت واقفًا إمامها والمسافة بيننا لا تتعدى النصف متر...وجدتها تشير بيدها بمعنى اجلس...هل هي خرساء؟ أتمنى ذلك...لكن فمها الذي انفتح قليلًا وخرج منه صوتها الهادئ بَدَّدَ آمالي تمامًا...

– "غريب أنت عن ذلك المكان...غريب"

لم أعلم كيف استطاعت معرفة ذلك، ولكن ربما يبدو عليّ الاختلاف عن أهل الأندلس بالفعل...شعرت بالقلق يزداد بداخلي، فسألتها متعجلًا..."ماذا تريدين مني؟"

مدت يدها وقالت: "سأقرأ لك كَفَّك، سأعلمك شيئًا عن طالعك".

أجبتها مستنكرًا: "شكرًا لك...لا أريد معرفة طالعي.."

نظرت لي بعينيها العسليتين وأردفت: "لن أطلب منك مالًا، فأنا أعلم أن جيبك خاوٍ كعقل الجاهل".

ظللت أنظر لها لثوانٍ متشككًا...ثم مددت يدي ببطء، أمسكت بيدي لأشعر بسخونة غريبة تسري من يدها الناعمة ليدي، ثم بدأت أمارات القلق تبدو على وجهها الأسمر...نظرت لها في تساؤل..فأجابتني بعد أن زفرت بحزن:

"أبيض الوجه والقلب والاسم أدهم...صغير السن وكبير الروح بالألم... مكتوب عليك الشقا...والافتراق بعد اللقا...روح يا بني..روح...افرح شوية قبل معاد الجروح..."

اندهشت مما قالت أيما اندهاش... كيف علمت كل ذلك؟ وما معنى كلماتها؟ والأهم من ذلك...كيف تحولت لهجتها للعامية؟ كيف توصلت للهجتي الأصلية؟ آلاف الأسئلة التي ازدحم بها عقلي، وخرج منها القليل على لساني إليها، فلم أحصل على رد منها.. ظللت على تلك الحالة لدقائق، وعندما أيقنت بصمتها المانع لأي إجابة، قمت مسرعًا لجدي...هناك العديد من الأحداث التي سأرويها له بالتأكيد...

***

25

وصلت لجدي وما زالت تسودني حالة الانبهار والدهشة مما سمعت من تلك العرافة السمراء...دخلت غرفتنا فوجدته جالسًا يتأمل في رسوم سقف الغرفة في هدوء، قبل أن أنبس بكلمة، ارتفع صوت المؤذن من مئذنة المسجد بجانبنا يعلن أذان المغرب...

– "ياللا بينا يا أدهم نزل نفطر في ساحة الخان مع باقي الصايمين".

أمسكت بذراعه طالبًا منه التمهل لإخباره بما حدث لي، أجابني:

– "عارف إنك أكيد شفت حاجات كتيرة تستاهل تتحكي...متقلقش، هنقعد مع بعض شوية بعد الفطار ونتكلم في كل حاجة".

لم أهدأ ولكني وافقته على مضض منتظرًا انتهائنا من الإفطار...

أأأفطرنا مع باقي النازلين بالخان، وأشرف على خدمتنا تلك المرة "مناحيم" وابنته "إستير" فقط، ابتسمت لجدي ابتسامة ذات معنى، فابتسم هو الآخر معلنًا فهمه لما أقصد...

بعد الإفطار، كنا في طريقنا لغرفتنا، فقاطعنا رجل سمح يبدو أنه من أهل المدينة، أخبرنا بهدوء أن إمام مسجد قرطبة قد اجتمع برجال المنطقة ليخبرهم ببعض النصائح، ويقصُّ عليهم بعض العظات الدينية بمناسبة يوم عاشوراء...تحمَّس جدي للفكرة ووافق على الذهاب معه، تنحنحت بصوت خفيض لجدي لأذكره بجلستنا معًا لتباحث ما رأيته بالسوق..أود أن أخبره بشده بما رأيته من تلك الدجالة، لكنه رفض وطلب مني إرجاء تلك الجلسة لوقت لاحق... لم أستطع معارضة جدي، وأيقنت أن الظروف قد تكالبت عليَّ كي لا أحادث جدي فيما رأيت..حسنًا..سأنتظر وإن كان الانتظار قاسيًا بعض الشيء...

***

استمر اجتماع الإمام بالناس حتى صلاة العشاء، فصلينا وانتهينا من صلاتنا..وبعدها بساعة، أعلن المنادى عن بدء الاحتفال بقصر الإمارة...فقمت أنا وجدي متجهين نحو القصر الذي لم يبعد كثيرًا عن مسجد قرطبة...

انفتح باب السدة أحد أشهر أبواب قصر الإمارة لاستقبال ضيوفه الكُثر..وما إن اقتربنا بدا على القصر من الخارج أعظم مظاهر الفخامة والرُّقي، والزخارف الإسلامية تُلقي بظلالها الفنية على

جدرانه الرخامية وأبوابه الخشبية المطعمة بشتى المعادن القيمة، بينما تلمع نوافذه المدعمة بقضبان نحاسية تخطف العيون لشدة جمالها، والحدائق الغنّاء، وقد تحوّلت في عتمة الليل لشمس مشرقة بقناديلها وفوانيسها المبهرة، وألقت بأضوائها على البرك الصناعية بمياهها المجلوبة من جبال قرطبة...

بينما بالداخل أضعاف مضاعفة من الروعة مقارنةً بما رأيته من الخارج...أتأمل أنا و جدي المشهد من حولنا غير مصدقين، الناس تتزاحم من حولنا وقد تجمهرت حشود ليست بالقليلة لحضور ذلك الحفل.. صحن القصر يمتلئ بالمزيد والمزيد لكنه – ويا للعجب! – قادر على استيعاب عدد كبير من معظم الناس بالفعل...أحد الخصيان المكلفين بخدمة الزوار استفسر منا بلغه عربية تشوبها لهجة غريبة عما إذا كنا زوارًا أو من أهل قرطبة، فأخبرناه بأننا زوار على سفر، فأرشدنا إلى مجلس الزوار الذي احتل موضعًا قريبًا وجيدًا بالفعل من موضع حاشية الأمير...إن كرم الضيافة لشيء واضح في هذا المكان!

بعد فترة أُغلقت أبواب القصر معلنةً اكتفاءها بذلك الجمع الغفير، وصَمَتَ الناس منتظرين قدوم الأمير "عبد الرحمن الأوسط "ليبدأ الحفل...بالفعل خلال دقائق، تقدم حرس الأمير شاهرين سيوفهم والأمير يتوسطهم..وجدته رجلًا أسمر الوجه ضخمًا تبدو المهابة والشموخ واضحة جلية على وجهه، حاد الأنف، ذا عينين سوداوين واسعتين تشعان حزمًا وإصرارًا،وقد أضافت لحيته السوداء

الكبيرة له وقارًا يجبر من أمامه على احترامه ولو رغمًا عنه...تقدم مرتديًا جبة أنيقة ذات كمين واسعين، وقد تمت توشيتها بالزخارف والتطريزات الذهبية...

جلس الأمير "عبد الرحمن" بهدوء، وأشار لمساعده ببدء الحفل...بدأت الاحتفالات ببعض الموشحات الأندلسية التي تتابع على عزفها على الدفوف والعود مجموعة من الجواري الحسان، ثم بعض الغلمان ذوي الصوت الشجي، والأمير يبدي إعجابه بما يسمع ويصفق لهم مع الحضور...انقضت سويعات نستمع فيها لقصائد من الشعر من أفواه أعظم شعراء الأندلس وقتها، ثم الموسيقى الأندلسية الرائعة والتي بالرغم من سماعي لمعظمها من عباقرة العود والآلات الوترية في زماننا، ولكن الاستماع إليها من مصدرها وفي زمنها بالتأكيد له سحره الخاص...

اقتربنا من النصف الثاني من الحفل والناس في انتظار المغني القادم، حينها وقف أحد كبار حاشية الأمير مستعدًا للكلام، فهمس أحد الجالسين بجانبي: "ما أغرب هذا!"

لم أتمكن من إمساك فضولي، فسألته في أدب: "ما المشكلة يا سيدي؟"

أجابني باستغراب: "لا بد أن الضيف القادم هو ضيفنا المنتظر..لقد وقف حكيم الأندلس "عباس بن فرناس"بنفسه لإعلانه"..

اندهشت للحظة...هذا هو "عباس بن فرناس"..أول من حاول الطيران من علماء المسلمين بجناحين من صنعه، بالإضافة لعديد من المخترعات المدهشة وبراعته في الفلك والفلسفة والكيمياء والشعر والموسيقى، وأحد أكبر معاوني "عبد الرحمن الأوسط "في إعلاء نهضة الأندلس...إن هذا الرجل لنابغة بالفعل، نظرت نحو جدي بسرعة معلنًا انتصاري عليه ومعرفتي للشخص المراد من رحلتنا...

لكني أُصبت بخيبة الأمل عندما بادلني نظرتي بهزة رأس نافية، وأشاح برأسه منتظرًا سماع ما سيقوله "عباس بن فرناس" الذي تنحنح وبدأ في الكلام بالفعل..

– "أتانا منذ عشر سنوات في بداية حكم أميرنا المبجل "عبد الرحمن بن الحكم"، فجلب معه الخير كله وأشجى أسماعنا بعذب ألحانه وصوته الذي يقارع البلابل في بهائه...فليرحب الجميع بمطرب البلاط الأول..."أبي الحسن على بن نافع"!

تعالت أصوات التصفيق الحار من جميع الجالسين، زوارًا كانوا أو من أهل المدينة، وارتفعت آهات الاستحسان والمديح من حناجر الحضور...أتجه برأسي نحو جدي غير مستوعب لما يحدث...فأبتسم بعد أن شارك الجميع في التصفيق وقال:

– "أبو الحسن علي بن نافع".....المعروف بـــ"زُرياب"!

***

بالطبع، إن لم يكن "زرياب" هو المُراد من تلك الرحلة...فمن يكون؟

تبدأ المعلومات التي قرأتها قبل الرحلة في التوارد لذهني، بينما يدخل "زرياب" لصدر ساحة الاحتفال بهدوء وسط موكب من الحراس والعازفين وأبنائه ممن يساعدونه في الغناء والعزف، رافعًا يديه شكرًا للحاضرين...

"زُرياب"..ما يطلق على طائر أسود اللون عذب الصوت...أفضل وصف لهذا الرجل الأسمر الذي أجبرت موهبته أستاذه على تهديده خوفًا من استحواذه على مكانته عند الخليفة هارون الرشيد، فهرب من الأستاذ "إسحق الموصلي "ببغداد وارتحل حتى وصل للأندلس في بدايات حكم "عبد الرحمن الأوسط"...

استقر"زُرياب"بقرطبة، وأسس بها دارًا للغناء والموسيقى، ولم يقتصر دوره على الغناء للأمير، بل جاء معه بكثير من العادات والتقاليد الحضارية التي انتشرت على يديه بين أهل قرطبة وسائر الأندلس. وضع لهم قواعد للسلوك والمروءة، قسّم ترتيب وجباتهم، وأدخل أصنافًا جديدة من الطعام، اختار ملابسهم واقترح أزياءهم باللون والتطريز، علمهم طُرق العناية بالجسم والبشرة، وطُرقًا جديدة لقص شعر الرأس، ادخل الشطرنج للأندلس، اخترع غناء الموشحات، ارتقى بالذوق العام لأهل الأندلس، وقلما تجد مظهرًا من مظاهرهم الحضارية الاجتماعية إلا وكان له فضل كبير فيه..

تأكدت من اختيار جدي عندما ابتسم هازًا رأسه بالإيجاب هذه المرة، ثم داعبني بقوله:

– "عرفت بأه الزلابيا كان اسمها"زريابيه"ليه؟ قلتلك الصبر مفتاح الفرج".

ابتسمت وقد بدأت الحماسة تنتابني لسماع ما سيقوله "زرياب"من الغناء العذب، ولأنظر لذلك الرجل الذي قام بطفرة حقيقية في الحياة الاجتماعية لأهل الأندلس...

***

أخذ "زرياب" نفسًا عميقًا، ثم بدأ في التحدث بصوت جهوري وصل لأسماع الجميع:

– "في مقتبل كلامي، أشكر أميرنا العظيم الذي شملني بدفء استضافته وكرمه الذي لا ينتهي، وأتمنى أن ينال ما سيسمعه من أوتاري إعجابه الشديد، وهذا مُطلق مُرادي ورغبتي".

صفق الأمير"عبد الرحمن" بيديه معلنًا رضاه عما سمع، وأشار له بالبدء، فانحنى "زُرياب" برأسه قليلًا، ثم أكمل:

– "سأسمعكم اليوم أقرب الموشحات إلى قلبي، وإن هذا الجمع السعيد لهو أفضل موضع لإعلان آخر ابتكاراتي...لقد أضفتُ وترًا خامسًا للعود!"

تهامس الناس غير مصدقين لما يقول، ولهم كل الحق في ذلك، فحينها كان للعود أربعة أوتار فقط، فجاء "زُرياب" مضيفًا وترًا

خامسًا لتأدية النغمة الحادة في العزف...ما بالهم إذا علموا أن العود في زمننا صار له ستة أوتار، بل قام البعض بإضافة وتر سابع وثامن!

ثم جلس "زُرياب" على مقعد وثير قد أحضره له أحد الغلمان، عبث قليلًا في لحيته القصيرة وبدأ في ضبط أوتار عوده الخاص الذي صنعه بنفسه تحضيرًا للعزف، وأمسك بريشة العود، ثم بدأت الألحان في الخروج من هذا العود السحري..

رباه...ماذا أسمع! هذه النبرة وتلك الأصوات البديعة المنطلقة من هذا العود، إن هذا الرجل لساحر بالفعل، الآن علمت لماذا اندهش وطار هارون الرشيد بفرحته بما سمع من "زرياب"...إني على استعداد لقتله بالفعل لو كنت في موضع "إسحق الموصلي"..

عُلّقتُها ريحانةً هيفاء عاطرة نضيره،

بين السمينة والهزيلة والطويلة والقصيره،

لله أيام لنا سلت على دير المطيره

لا عيب فيها للمتيّم غير أن كانت يسيره!

دندن تلك الأبيات مازجًا بها عزفه على أوتار عوده الخاص، فهلل الناس وصفقوا له استحسانًا لعدة دقائق، ثم بدأ في إنشاد العديد من الأبيات الأندلسية، بلهجات مختلفة تنم عن سعه إطلاع وخبرة شديدة بالفعل...ظللت هائمًا أستمع لتلك النغمات الساحرة لفترة ليست

بالقصيرة..غير مدرك لمعنى ما أسمعه حتى وإن فهمت اللغة...يكفيني النشوة الجارفة التي تغمرني بسبب سمعي لتلك الألحان..

***

لم أستفق من تلك الغيبوبة الجميلة إلا عندما أعلن المُنادي نهاية الاحتفال، وانفتاح الأبواب المغلقة لتخرج الحشود إلى حياتها العادية مرة أخرى، بعد تلك الساعات الممتعة التي قضوها في جنة أرضية من صنع ضربات العازفين وكلمات الشعراء...

أحسست بخيبة أمل، وظهرت واضحة على وجهي، فاقترب مني جدي وربت على كتفي قائلًا:

– "متزعلش...يكفيك إنك الوحيد اللي حضرت العصر دا من وسط سكان الأرض كلها في زمننا".

أجبته بكل حزن:

– "بجد كانت فترة جميلة أوي...خسارة ضياعها"

تنهد جدي بأسى قائلًا:

– "الخسارة إن القصر الجميل دا اتهدت واجهته الجنوبية في القرن الـ17، و بعدها اتحرق ومفضلش منه غير الحيطة اللي جنب جامع قرطبة...حتى جامع قرطبة نفسه مبقاش جامع خلاص".

انسالت دمعة على خدي بالرغم مني...فشدّ جدي على يدي وقال:

– "فعلًا حضارة تستحق البكاء على ضياعها...الضعف عمره ما بيحافظ على دولة، والخيانة والتهاون والإهمال يقدروا على تضييع كنوز من إيد أحسن الناس... لما غرناطة آخر ممالك العرب ضاعت من إيدينا، وقف "أبو عبد الله محمد الثاني عشر" آخر ملوكها وبص لها آخر بصة قبل ما يسلمها للملك فرناندو...ساعتها مقدرش يمنع نفسه من البكا..فقالت له أمُه "عائشة الحرة":

«ابكِ مثل النساء مُلكا مُضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال».

ثم أمسك جدي بيدي واقتادني خارج القصر قائلًا:

– "كفاية كده يا أدهم...لازم نرجع لزمننا"...

عدنا إلى الخان، وشكر جدي السيد "مناحيم" على حسن ضيافته، فأهداه الرجل خاتمًا فضيًا ذا فص أحمر داكن ليذكره بالخير..كرر جدي شكره على تلك الهدية الغالية، وارتداه في خنصره الأيمن...بعدها توجهنا خارج أسوار المدينة...مكررين نفس الدرب التي سلكناها في بداية رحلتنا، حتى وصلنا لنقطة الوصول، فأخرجت الساعة من جيب ردائي حيث وضعتها، ثم ضغطت على زر الانتقال...الممر يبدأ في التكون وسط ظلمة تامة لا يرانا أحد فيها لحسن الحظ...ثم جدي يخطو ليبتلعه الممر وينقله لحاضرنا..وقفت

لبرهة ونظرت خلفي، فرأيت قصر الإمارة من مسافة بعيدة وكأنه يبادلني الوداع...

وداعًا قرطبة...لن أنسى تلك الرحلة ما حييت...

***

26

وكأننا عائدان من حفل ساهر، ارتمى كل منا على فراشه بمجرد انغلاق الثقب من خلفنا..لا وقت لأحاديث أو مناقشات، فصباح الغد سيأتي بكل الوقت المناسب لذلك..يكفينا العودة بدون أي خسائر، بل بالعكس فبطوننا ملأى بأطيب الطعام والشراب...

و كأنني نمت لثوان معدودة، فوجئت بيد جدي توقظني بعنف، فتحت عيني في وهن لأجد جدي واقفًا بجانبي وقد بدأ الثقب الزمني بالتكون في وسط حجرتي..قفزت مندهشًا ونظرت لجدي في تساؤل، فأجابني قبل أن أسأله:

– "مفيش وقت..البوابة اتفتحت ولازم ننتقل.."

– "بس إزاي؟ إحنا لسه قدامنا تسع أيام على الأقل قبل أي سفر".

أجابني بسرعة: "إنت نايم بقالك تسع أيام يا أدهم!"

تسمرت في مكاني لثوانٍ، ولكن جدي لم يمهلني الوقت، بل امسكني من يدي وقفزنا للبوابة في عجلة..

امتصنا الثقب في أقل من ثانية، ولكن بدلًا من أن نرتمي للجانب الآخر بعدها، ظللنا مندفعين خلال ممر لانهاية له..أبديت اندهاشي لجدي الذي اكتشفت أنه يشاركني نفس الدهشة..

– "مش معقول...أكيد فيه حاجة غلط..مش معقول.."

– "إيه اللي حصل يا جدي؟"

– "واضح إني نسيت أغير مكان وزمان الثقب الأخير..وبكده الآلة دخلت في ممر تم استعماله والمفروض إنه اتلغى من قائمة الثقوب الزمنية فيها.."

– "مش فاهم تقصد إيه.."

– "أقصد إننا في مصيبة واحتمال منقدرش نرجع لحاضرنا تاني".

كاد قلبي أن يتوقف من الرعب...تخيلت أننا نضيع في العدم وأن نفقد فرصتنا في رجوعنا لزمننا، إنه أسوأ كوابيسي...

العدم يحيط بنا في الممر الزمني، ولمحات خاطفة تسري من حولنا وأصوات تنبعث وتخفُت في أقل من الثانية، ثم فجأة إذ بطفل صغير قادم من بعيد يخطو بخطوات مرتجفة نحونا!

– "طفل؟ هنا؟ إزاي؟"

اقترب منا فانحنى جدي تجاهه مبتسمًا: "إنتا مين؟"

أجاب الطفل بصوت مرتعش وكأنه تعلم الكلام حديثًا: "أنا أدهم".

إنه أنا! ولكن في زمن آخر كنت فيه طفلًا، كيف هذا؟

نظر لي جدي بنظرة لها معنى ثم قال: "اللي كنت خايف منه حصل...غلطة الآلة عملت تداخل في مجرى الزمن...البناء الزمني كده هينهار من حوالينا".

قبل أن أسأله عن معنى ذلك أو أعلن عن مخاوفي، وجدته يمسك بالطفل ثم يحمله على ذراعه بكل سعادة قائلًا:

- "تفّ على عمو أدهم يا أدهم".

أطاعه الطفل بسرعة باصقًا عليّ ثم تضاحكا معًا...انتابتني الحيرة مما أراه...هل جُنّ الجميع؟ هل انتهت حياتي لأصير أسيرًا لذلك العدم؟ ما هذا؟ كيف؟ أين؟

قطع هلعي وتساؤلاتي صوت خطوات هادئة ثقيلة آتية من خلفي..استدرت بسرعة لأرى رجلًا كهلًا قد دنا منا...اقترب منا حتى صار في مرمى رؤيتي..

كلا...هذا ليس بحقيقة...

يقف أمامي نسخة مني وقد اصطبغ بالكهولة والشيب فانحنى ظهره ووهن جسده..وبعينين مجهدتين ظلّ يرمقني بنظرات ثابتة..ثم

فجأة بدأ جسده في الانكماش والتداعي حتى تحول في ثوانٍ لهيكل عظمي ثم تراب تذروه الرياح التي لا أعلم من أين أتت..

وجدت جدي يردف في حزن:

– "ما تزعلش يا أدهم...الموت مصير كل إنسان".

ثم في لحظة، نسي حزنه واتجه نحو أدهم الصغير وظل يلاعبه ويداعبه إلى أن بدآ في الركض معًا بعيدًا عني...

هرولت تجاههم فزاد بعدهم عنّي، تحول المكان من حولي إلى طُرق ملتفة ومتداخلة ظلت تتشابك وتدور أمامي حتى ضللتُ الطريق، ثم فوجئت بسربٍ من الأصوات المختلفة يُدوِّي من اللامكان وفي كل مكان..أي جنون هذا؟ لقد صرت كـ"أليس"في بلاد العجائب..لا ينقصني سوى الأرنب القافز حاملًا ساعة جيبه..

جاءني صوت ضحكات مفتعلة، نظرت تجاهها لأجد أرنبًا يقفز حولي في قفزات سريعة متباعدة، وبين يديه ساعة جدي التي نسافر من خلالها....كلا..كلا..كلا....لابد أنني في حلم سيئ...

لا بد أن أستيقظ..

لاااااااااااااا...

***

بالطبع كان مجرد حلم...نتيجة حتمية لما أكلته وشربته في حفل أمير قرطبة...نصيحة لي، لا تأكل كثيرًا في رحلة زمنية حتى لا تصاب بالكوابيس عند عودتك لحاضرك..

جاء اليوم التالي، ومعه أتى موعد جلستنا..لا بد من حوار يجمع ما رأيناه وخبرناه، وعلى مائدة الفطور بدأ كل منا في سرد ما رآه وسمعه في بلاد الأندلس...

– "مناحيم حكى لي عن حاجات كتيرة، بس أنا متأكد إن اللي انت شفته في السوق أهم من كلام الراجل دا...احكي يا أدهم..حصل إيه ساعتها وكنت ملهوف تقوله قبل الحفلة؟"

رويت له ما حدث بيني وبين تلك السيدة قارئة الكف ذات الملابس الغريبة والكلام الأغرب...انتهيت من كلامي وما زال جدي مقطبًا لحاجبيه صامتًا...ماذا بك يا جدي؟

– "إحنا أكيد متفقين إن المشعوذين وأغلب الناس اللي زيهم هما نصابين، وإن أغلب كلامهم وتنبؤاتهم بتبقى شكل من إشكال الفراسة والحظ مع اللعب بنفسية الزبون...لكن أدهشني في كلامك حاجتين.."

ثم رفع قبضة يده اليمنى أمامه وبدأ العد على إبهامه وسبابته..

– "أولًا..إزاي الست دي عرفت اسمك وإنك غريب...بالنسبة لجزئية غريب ممكن يكون الحظ حالفها فيها..إنما اسمك عرفته إزاي ومحدش نادى عليك بيه؟"

– "ثانيًا...متنساش إن من كلامك عن هيئتها ومع معرفتنا بالطبيعة السكانية لأهل الأندلس في الوقت دا..يبقى الست دي بنسبة كبيرة جدًا من بلاد المغرب..وانت عارف المنطقة دي من زمان

جدًا معروفة بالسحر الحقيقي وتعاملهم مع الجان والأعمال والحاجات دي..."

ثم زفر قائلًا: "فعلًا موضوع محير جدًا... بس أنا من رأيي، أصرف نظرك عنه...اعتبره مجرد تخاريف من دجالة، وحتى كلامها عن المصايب والألم والجروح، كلام عايم ينفع لأي حد..أنا نفسي حياتي كان أغلبها ألم وجروح..ولا نسيت اللي قرأته؟"

تمتمت قائلًا:"عندك حق يا جدي...الموضوع مش محتاج كل دا...اللي مكتوب لي هيحصل..."

ثم أخبرته بالكابوس، فقهقه ضاحكًا:"انت قلتها بنفسك...اوعى تتقل في الأكل بعد كده"...

انتهت جلستنا بالضحكات والحديث عما رواه "مناحيم" لجدي إلى أن غربت الشمس علينا في شرفة المترل وبيد كل منا كوب من الشاي الساخن...

– "فكرتني...أنا نازل كمان شوية أزور"أروى" ووالدتها..زمانها رجعت من المستشفى"

– "واجب برضو...وأكيد خد معاك علبة شوكولاته...متدخلش عليهم بايد فاضية".

– "إيه الجو دا يا جدي؟ يا حاج دي عندها السكر".

– "يا بني والله بتنفع في كل الأوقات..اسألني أنا"

ابتسمت وقد جال في ذهني خاطر أننا نسافر للماضي وفي كل مرة نحمل علبة من الشيكولاته لأهل ذلك الزمن...ستكون مفاجأة عظيمة بلا شك!

سألت جدي فجأة: "ليه يا جدي مش شايف تليفزيون في الشقة؟ مع إني فاكر أنه كان موجود زمان".

أومأ جدي برأسه ثم قال: "فعلًا كان موجود...بس من كام سنة مبقتش أصدق حاجة من اللي بيتقال فيه...وبعدين مين يبُص لتليفزيون وهو عنده مكتبة زي دي...أو بين إيديه تاريخ العالم كله يقدر يشوفه بعينيه؟"

هززت رأسي موافقًا لكلامه كعادتي...بالفعل لديه حجة قوية تدعم كلامه...

سألني جدي أن أُسمعه بعضًا من الموسيقى الهادئة ليحافظ على هدوء أعصابه...ذهبت لغرفتي وأحضرت مشغل الموسيقى الخاص بي...

– "هتسمع حاجة على ذوقي".

ابتسم جدي صامتًا منتظرًا...بدأت الموسيقى الحالمة في الظهور معلنةً بدء مقطوعة "لا كريموزا" إحدى روائع الموسيقار النمساوي العالمي "موتسارت"...

ظللنا نرمق شارعنا في صمت منتشين بما تسمعه آذاننا من موسيقى ساحرة، بينما الشمس تودع الناس في هدوء، وتفسح المكان

للقمر الشاب القادم بكل حماسة نحونا...نظرت لساعتي فوجدت الوقت سانحًا للنزول لـ"أروى"..استأذنت جدي في صمت تاركًا إياه يسبح بهدوء في عالمه الموازى..كلمتُ "أروى" هاتفيًا وأخبرها بمجيئي خلال ساعة، فأجابتني بصوتها الهادئ:

– "مستنياك يا حبيبى..ومحضرة لك مفاجأة حلوة جدًا".

– "خلاص مش هسألك هي إيه، علشان أكيد هتقولي مينفعش وإلا متبقاش مفاجأة".

– "ذكي..و ذكاءك دا هيخسرك حاجات كتير".

– "المهم مخسركيش إنتي".

– "تصدق إنك رخم..علشان كنت عايزاك تسألني عن المفاجأة وانت كده خليتني متغاظة منك".

ضحكت وقد تخيلت ملامح وجهها الملائكي وقد تقطب حاجباها بشكل طفولي..

– "متقلقيش...كلها ساعة وابقى عندك وفاجئيني زي ما تحبي".

– "متتأخرش...وخلي بالك من نفسك".

– "بلاش الأفورة دي يا أروى...أنا مش مهاجر الكويت".

– "رخم فعلًا...مع السلامة يا كابتن".

أغلقت الاتصال مبتسمًا...لا يمكنني بالفعل تخيل حياتي بدون تلك الفتاة...أحمد الله على وجودها معي..

27

وصلت لمترل "أروى"ووالدها حاملًا علبة الشيكولاته إياها، ضغطت جرس الباب فاستقبلتني حورية الجنة...

– "علبة شوكولاته؟ إيه جو التسعينات دا؟"

ضحكت في سري متمتمًا لنفسي: "أدي أخرة اللي يمشى ورا كلام الكبار".

خرجت ضحكتي على شكل ابتسامة خجولة: "بشوفهم بيعملوا كده في الأفلام".

ضحكت "أروى" أيضًا قائلة: "عامةً تسلم إيدك يا أدهم.. اتفضل".

دخلنا معًا إلى غرفة والدها وقد جلست على فراشها متدثرة بغطاء قطني، و ما إن رأتني ظهر السرور على وجهها مُرحِّبةً بقدومي...

تحادثنا واطمأن كل منا على الآخر، ودخلنا في دردشة ثلاثية قطعها إحضار "أروى" للعصير وبعض البسكويت...بعد فترة من الوقت، قمت داعيًا لوالدة "أروى" بالسلامة وسرعه الشفاء، ثم قَبَّلتُ يدها فمسحت بيدها الأخرى على رأسي، وأثنت عليّ بكلمات من المديح والشكر، وأعقبتُ ذلك بالاستئذان والخروج من الغرفة، فرافقتني "أروى" حتى باب شقتهم.. وهناك سألتني "أروى" محاولةً رسم الغموض على وجهها الصغير:

– "مش عايز تعرف إيه المفاجأة اللي قلتلك عليها؟"

– "تصدقي كنت ناسي الموضوع دا!"

رمقتني "أروى" بنظرة حادة وكأنها تنوي قتلي، ثم ضحكت قائلة:

– "لأ بجد يا أدهم...دي حتى مفاجأة جامدة جدًا".

ثم بدأت في الحديث بدون انتظار:

– "كنت واخدة أجازة كام يوم علشان أقعد مع ماما..إمبارح جالي تليفون من واحدة زميلتي في الشئون القانونية..مش هتصدق قالتلي إيه..ممدوح اترفد من يومين!"

اعتدلت في جلستي وقد شدّ كلامها انتباهي.."إزاي دا حصل؟!"

بدا الانتصار على وجهها وأكملت بكل فخر: "كرر اللي عمله معايا مع واحدة عندنا في الشغل، بس المرة دي كان فيه شهود من زمايلها، وقدروا يدافعوا عنها ويفضحوه قدام كل الموظفين...يا

خسارة.. كان نفسي ابقى موجودة وقتها واشوفه وهو زي الكلب كده بيتهزأ قدام الناس".

زفرت مندهشًا: "اللهم لا شماتة...بس هو يستحق فعلًا اكتر من كده بكتير".

أجابتني في سرعة: "وشوف ربنا لما ياخد للناس حقوقها...دلوقتي اللي مسك مكان ممدوح هو أستاذ أحمد متولي، عضو مجلس الإدارة اللي كان المفروض يبقى مكان ممدوح من زمان...سبحان الله".

رددت وراءها مؤكدًا: "سبحان المعز المذل"...

– "الأهم من كل دا...جهز نفسك علشان قدرت أوضب معاد لينا بعد بكرة مع أستاذ أحمد...وزميلتي بتقوللي فيه قرار هيطلع بإنك ترجع للشغل تاني".

انتابتني الدهشة والسعادة معًا...اندهشت من إقدام وإصرار "أروى" على استعادة ما فقدناه، وحسن تصرفها، وإعدادها لكل ما هو قادم...وسعدت لسماع تلك الأخبار المطمئنة...

شاهَدَت "أروى" السعادة تلتمع في عيني فابتسمت هي الأخرى في صمت...

– "دايمًا بنجيبي الأخبار الحلوة معاكي يا أروى....ربنا يخليكي ليا وميحرمنيش من وقفتك معايا".

ظلت ابتسامة "أروى" هي كل ما أراه حتى عدت إلى بيت جدي لأنقل له هذا الخبر السعيد فور دخولي من الباب...إذن فموعدي مع استرداد حقي بعد يوم...فهنيئًا لي بذلك النصر السعيد...

***

مر اليوم التالي كالبرق، لم يحدث فيه سوى بعض المناقشات مع جدي..ساعة من مطالعة كتب المكتبة، ثم التجول قليلًا في شوارع شبرا العزيزة بصحبة الرفاق إلى أن أشعر بالتعب فأعود للبيت مرة أخرى..

جاء يوم المقابلة، وكأني ذاهبٌ لمقابلة التقدم لوظيفة جديدة..ارتديت أفخم ملابسي وتهندمت استعدادًا لملاقاة المدير الجديد..أردت أن أترك لديه انطباعًا بأحقيتي في العودة للمحطة...أن أثبت أن هذا المأفون المسمى ممدوح قد ارتكب خطأ فادحًا عندما أمر بإقالتي من العمل...

توجهت للمحطة متأبطًا ذراع "أروى"...يمنعنا التوتر من التحدث عن أي شيء بخلاف تلك المقابلة.. تسألني "أروى" كل دقيقة، بل كل ثانية، عما سوف يحدث..هل سنعود للعمل فعلًا؟ أم أن تلك المقابلة ما هي إلا ورقة يلعب بها مجلس إدارة المحطة لمنعنا من طلب تعويضات قضائية؟ هل سيكون ذلك المدير الجديد مثل ممدوح أم أفضل؟ هل يحتاج حجابها لتعديل؟ أتظهر منه بعض الشعيرات أم لا؟

أسكتها – أخيرًا – صوت مساعدة المدير بندائها علينا لتعلمنا بإمكانية دخولنا الآن...حمدًا لله..ربما إن تأخر ذلك النداء لدقائق،

لوجدوني جالسًا و بجواري جثة "أروى" بعد أن خنقتها بحجابها وقد ارتسمت على وجهي أمارات البراءة كصور أطفال الكتب المدرسية...

كان اللقاء مثمرًا بالفعل..أسعدنا المدير بحسن استقباله ولباقته في الحديث..ووجدت في كلامه ما يدل على وعيه التام بما حدث في المحطة، وبنظرته البعيدة لمستقبل المحطة بتطويرها ورفع مستوى برامجها وزيادة انتشارها..

– "بصراحة يا أستاذ أدهم..أنا مش عاجبني برامج كتيرة من اللي شغالة في المحطة، ومندهش من عدم الاهتمام الواضح اللي كان بيمارسه ممدوح مع برنامجك".

– "الحمد لله على كل شيء يا أستاذ أحمد...بالرغم من كل دا، برنامجي كان عامل عدد متابعين مش بطال..وأنا كنت شايف إنه شيء كويس بالنسبة لمحتوى البرنامج اللي صعب إنه ينافس باقي البرامج".

– "يعجبني فيك التواضع والاقتناع يا أستاذ أدهم...بس أنا شايف إن البرنامج بتاعك كان محتاج اهتمام زيادة...انت شايف البرامج كلها من حوالينا مليانة تفاهة...رغي كتير...أغاني مكررة...اهتمام شديد بتوافه الأمور ومحدش مركز في الحاجات المهمة فعلًا..."

مال المدير برأسه قليلًا نحوي، مركزًا نظراته على عيني ثم أكمل:

– "وعلشان كده أنا نويت أرجعك تاني للقناة...برنامجك يستحق إنه يبقى في مقدمة البرامج بتاعتنا... يستحق دعاية أفضل واهتمام أكبر...ليه مدة البرنامج ساعة واحدة بس؟ أنا شايف إننا نزود كمان نص ساعة..وممكن بعدها يبقى مدته ساعتين كاملين!! إيه المانع؟ مادام مضمونه هادف وبيقدم معلومات مفيدة للناس عن تاريخهم".

لم أستطع التفكير برد مناسب...ذلك الرجل يستحق أن أنْحَتَ له تمثالًا من الذهب الخالص بالحجم الطبيعي..ما هذه الحماسة والاقتناع بمذيع شاب ما زال يتحسس خطواته الأولى في عالم الإذاعة؟!

لاحظت "أروى" ارتباكي، فأسرعت بشكر السيد "أحمد" خوفًا من أن يغير موقفه إذا لاحظ صمتي..ابتسم بعدما أنهت "أروى" كلامها ثم أردف:

– "وبالنسبة لك يا آنسه أروى...أنا عارف إنك كنتي شغالة في البداية مذيعة زي الأستاذ أدهم.. وبعدها بقيتي في الإعداد.. ومستواكي رائع في الإعداد حسب كلام السادة الزملاء، إيه رأيك تمسكي إعداد برنامج الأستاذ أدهم؟"

تلك المرة كان الصمت من نصيب "أروى"...سيجمعنا البرنامج معًا أخيرًا، وردًّا لجميل "أروى"، قمت أنا بشكر السيد "أحمد" بنفسي على ذلك القرار..انتبه لتبادل المواقف بكل ذكاء فضحك ضحكة صادقةً انعكست على كلينا، ليسود جو من السرور في المقابلة...

أنهى السيد "أحمد" كلامه قائلًا: "أنا اعرف إن الأستاذ وجدي ربنا يشفيه كان ليه عادة بيعملها في المحطة إنه بيساعد الموظفين اللي هيتجوزوا...والسكرتيرة قالتلي إنكم مخطوبين..مش كده؟"

ابتلعت ريقي بصعوبة عندما أدركت مغزى كلامه، فقلت بهدوء: "أه..مخطوبين من شهرين..والفرح إن شاء الله خلال سنة بالكتير"...

ابتسم المدير قائلًا: "ألف مبروك عليكم مقدمًا...وعاوزك متشيلش هم..نص تكاليف الفرح حتتكفل بيها إدارة المحطة".

وقتها كان الشكر من نصيبنا معًا، فمددت يدي لأسلم على ذلك الرجل الرائع ولساني يلهج بالامتنان الشديد، بينما بدأت أروى في البكاء من شدة فرحتها...

خرجنا معًا من مكتب المدير تصحبنا السلامة، قابلنا عم "خالد" بابتسامته الأبوية المعهودة قائلًا:

– "هاه...طمني يا أستاذ أدهم..حصل إيه؟"

أجبته في سعادة:

– "متقلقش يا عم خالد...شكلي قاعد على قلبك كتير".

ضحك عم "خالد" بصوتٍ عالٍ و قال:

– "الحمد لله..الحمد لله، أنا من الأول حاسس إن ربنا هينصركم على الكلب اللي اسمه ممدوح...الله ياخده مطرح ما راح...فاكر يا أستاذ أدهم..فاكر لما قلتلك إنه هيشوف أيام سودة؟ الحمد لله..الحمد لله".

ربتَ على كتفه وقبلت رأسه امتنانًا، ثم انطلقت مع "أروى" خارج المحطة وبداخلنا شعور لا يمكن وصفه بالفعل..استعدت كرامتي المهدرة، سأعود لعملي بعد أسبوع، وسترافقني حبيبتي "أروى" في برنامجي الذي سينال وضعًا يستحقه أخيرًا...ماذا يمكنني أن أطلب أكثر من كل ذلك؟!

أكملت ذلك اليوم السعيد مع "أروى"، تترهنا فيه في الشوارع وتناولنا الطعام والحلوى سعدين بتلك الأخبار المبشرة...إلى أن حَلَّ الليل وحان وقت عودة كل منا لمترله...يا له من يوم لا يُنسى بالفعل!

***

عدتُ إلى المترل، فوجدتُ جدي وقد آوى إلى فراشه...لا مشكلة، سأروي له ما حدث غدًا بالتأكيد.. آويت أنا أيضًا لفراشي، وإن كان صعبًا عليّ أن أنام بسبب الحماسة التي ظلت سارية في جسدي حتى الآن..

بالفعل لم ينل منّي النوم إلا على أواخر الليل، وقد عتمت السماء تمامًا حتى صارت الأضواء الخافتة الآتية من النجوم البعيدة وكأنها منارات ضوء لامعة بكل وضوح وسط ذلك البحر الداكن المشبع بأدخنة العاصمة وعوادمها السامة...

ظللت أرمق تلك النجوم بكل تركيز محاولًا النوم، وكادت جفوني أن تتقابل أخيرًا، ولكن منعها ما رأيته بعد ذلك...النجوم تتحرك!

إنها تقترب من بعضها البعض، وكأن مغناطيسًا خفيًا يجذبها لنقطة التقاء...تتجمع وتتشكل في هيئة وجه إنسان...وجه مألوف...إن أمكنني القول، إنه وجه تلك الساحرة السمراء!

اعتدلت على الفراش وقد تسمر جسدي مما أرى...أفرك عيني مندهشًا، ولكنها حقيقة..لقد ظهر وجه تلك الساحرة خلال مجموعات من النجوم..وهذا الوجه يبدأ في التحرك معلنًا خروج الكلمات بصوت أشبه لفحيح صامت...

– "انت ما مصدقني.. بكيفك.. انت ملعون. ملعون بالمعرفة.. متل أبوك أدم.. وأخرتك متله... العذاب والشقا".

ثم تبدأ النجوم في التألق...يتزايد التألق بشدة، حتى تستحيل الرؤية من شدة الضياء فأغلق عيني وأداريهما بيدي، و ما إن أفتحهما حتى أجد نفسي مستيقظًا على فراشي وقد أشرق الصباح!!

***

لقد كان حلمًا...تبًا لتلك الأحلام الغريبة...حاولت أن أتذكر ما رأيت بذلك الحلم، ولكن بدأت الكلمات في التساقط من عقلي، لا أتذكر سوى بعض التهديدات التي ألقتها تلك المشعوذة...إنت ملعون...العذاب والشقا...وضياء شديد يُعمي الأبصار...يا الله..أما لتلك الكوابيس من نهاية؟

خرجت من غرفتي لأجد جدي ما زال في غفوته..استثمرت الوقت المتبقي حتى موعد استيقاظه في إعداد فطورنا...والذي كنت انتهيت من إعداده وقت أن استيقظ بالفعل..

جلسنا على المائدة..رويت له ما حدث بالبارحة، فهنأني واحتضنني متمنيًا النجاح والتوفيق، وكدت أخبره بما رأيته في ذلك الكابوس، ولكني آثرت عدم إخباره...لقد كان مجرد كابوس وذهب لحال سبيله...لا أريد أن أعطيه مكانة أكبر من مكانته كمجرد أضغاث أحلام...

بعد أن انتهينا من الفطور، ذهبنا لجلستنا المعتادة في شرفة المنزل لشرب الشاي ومشاهدة الشارع الممتلئ بالناس أمامنا...بعد أن انتهى جدي من كوبه..وضعه بجانبه ثم سألني:

– "لو قدامك فرصة إنك تنقذ كتاب قديم ونادر من الضياع يا أدهم...تعمل إيه؟"

أجبته في سرعه:

– "أكيد هنقذ الكتاب..وخصوصًا إنه قديم ونادر زي ما بتقول".

– "طب لو إنقاذ الكتاب هيتم بأنك تسرقه...هتسرقه؟"

صمتُّ قليلًا، ثم أجبتُه:

– "السرقة حرام، وجريمة...لكن أعتقد إن سرقة الكتاب دا مادامت هتنقذه من إنه يضيع..يبقى كده مفيهاش ضرر على حد..بالعكس دي مفيدة للتراث على الأقل".

أجابني جدي:

– "يعني كده زي قاعدة الغاية تبرر الوسيلة؟ تبقى فرقت إيه عن ميكافيللي؟"

أدهشني موقف جدي..فأردفت:

– "بس دا كتاب مهم..ليه أسيبه يضيع من إيد الناس لما أقدر أنقذه واحميه، مهما كانت الوسيلة؟"

صمت جدي متأملًا للشارع في عدم تركيز لدقائق...ثم قال:

– "طب ودّي الكوبايات للمطبخ واسبقني على أوضة المكتب".

***

28

فعلت ما طلبه منى جدي، وعدتُ إلى غرفة المكتب لأجده واقفًا جوار المكتبة، وقد أمسك بكتاب أخذ يُقلّب في صفحاته، جلست منتظرًا كلامه الذي خرج من فمه بعد دقائق صامتة أخَذَ يتفكر فيها فيما يقرؤه من ذلك الكتاب..

– "المغول عملوا إيه لما دخلوا بغداد يا أدهم؟"

أدركت ماذا يعني بقوله هذا، فأجبته بكل ثقة:

– "بخلاف القتل ودبح الناس، حرقوا مكتبة بغداد بكل الكتب العظيمة اللي فيها، وعملوا جسر بالكتب يعبروا بيه نهر دجلة اللي اسود لونه بسبب حبر الكتب دي".

صَمَتَ جدي وظَلّ في تفكيره لدقائق أخرى، ثم ألقى قنبلته بكل هدوء..

– "وإيه اللي يأكدلك كده"؟

انتابني التردد لثوانٍ، لكني أجبتُه:

– "آلاف الكتب اللي اتكلمت عن الأحداث دي بتقول كده..بخلاف إننا درسنا الموضوع دا، ومن صغرنا عارفين إن المغول حرقوا مكتبة بغداد بالكتب اللي فيها"

لمعت عينا جدي بالانتصار وصفق بيده سريعًا..

– "من صغرنا عارفين....هي دي الكلمة اللي كنت مستنيها".

ترك جدي الكتاب على أحد الأرفف وبدأ في السير بشكل شبه دائري في الغرفة، بينما بدأت الكلمات في الانسكاب من فمه نحو أذني..

– "من أكبر مصايب الزمن دا، إننا ناخد بكل اللي بنسمعه، ونصدق كل اللي بنقراه..وخصوصًا في المواضيع التاريخية...التاريخ مش دايمًا هو الحقيقة...ومش دايمًا بيبقى كدب...الصح إنك تشك، وبعدها تبدأ في التأكد من اللي بتقراه، لكن انت عارف طبعًا إنه للأسف..العكس هو اللي بيحصل..

كتابة التاريخ بتتأثر بالإغراض السياسية، التحالفات والعداوات، الاختلافات العقائدية، حتى بتتأثر بمزاج اللي بيكتبه...تخيل إن شخص ما، اتفق كبار المؤرخين على إنهم يشوهوه بسبب خلاف شخصي بينهم وبينه، والتشويه دا اتسجل في التاريخ، وتمر سنين وسنين،

وتيجي تقرأ عنه..هيتكون رأي عندك إنه إنسان قذر مادام الكل أجمع على كده....وبكده بيتعمل التاريخ!!

نجيب محفوظ قال:

– "آفة حارتنا النسيان"...عنده حق، وأنا رأيي إن آفة عالمنا الإنسان! الإنسان اللي بيتبجح بتزييف وقائع لخدمة مصالحه أو تشويه المختلفين معاه في الرأي...ولنفرض الكلام دا على مثال المغول وبغداد..."

بدأت في الانتباه أكثر وأكثر، فها قد تحول الكلام لما يبدو إنها رحلتنا القادمة بلا شك...

أكمل جدي حديثه:

– "أغلب كتب التاريخ بتقول إن المغول هجموا على بغداد سنة 1258 م، ودا شيء حقيقي فعلًا، وإنهم ضمن هجومهم دمروا مكتبة بغداد وحرقوا أغلب الكتب، واستخدموا كتبها في صناعه جسر تعدي عليه خيول الجنود من نهر دجلة...لكن اللي مش معروف عند أغلب الناس إن المكتبة تم تهريب أكتر الكتب القيمة فيها لمكتبات تانية خوفًا عليها من الدمار، وإن أغلب الكتب دي استمر تهريبه من بلد لتانية وضاع أغلبهم على العرب...المهم إن المغول لما دخلوا على مكتبة بغداد كان أغلبها راح فعلًا...ودا ينفي تهمة التخريب..على الأقل مش بالشكل اللي مطلوب يتزرع في عقولنا".

أثارت جملته الأخيرة استنكاري...ماذا يقصد بجملة: "مطلوب يتزرع في عقولنا"؟

– "الفترة دي كانت الدولة العباسية بتضعف زي أي دولة تانية، ودا لأساب كتيرة مش وقته ذكرها، وبعض مؤيدي الفترة دي من تاريخ العرب والمسلمين بيحبوا ينكروا قمة الضعف عن حكام العباسيين، فبيبقى الحل الأمثل ليه إنه يهاجم ويشنع في الأعداء، ويهول من قوتهم وكتر أسلحتهم كمبرر لهزيمته قدامهم، ويزرع الكراهية والحقد تجاههم وتجاه كل اللي يتعامل معاهم..وبكده يبقى لازم نقطع الشك باليقين...رحلتنا الجاية هنشوف غزو المغول لبغداد حصل إزاي".

***

مرت الأيام التسعة بدون أن يذكر جدي تفاصيل أكثر عن بعض أساب تلك الرحلة، وكلما سألته التزم الصمت التام حتى جاء وقت الرحيل...

إنها العراق مرة أخرى، جئتها في أولى رحلاتي، وهأنا أعود إليها ثانيةً بحثًا عن الحقيقة الغائبة عن أذهاننا...ما يربو على الخمسمائة عام و أكثر مرت منذ أن زرت تلك الأراضي، وهأنا أراها لم تختلف عن سابقها كثيرًا، لكن الفارق في تلك المرة أن القلق والذعر كانا باديين على الوجوه القليلة التي رأيناها في الفترة التي قضيناها ببغداد... للتوتر كيان مادي يمكن الإمساك به ولا عذر عليهم، فجحافل المغول تحاصر أسوار المدينة، وجميعهم تربى على فظائعهم وأخبار معاركهم خلال السنوات الماضية...

وفقًا لحسابات جدي بخصوص غزو بغداد، فإننا في أوائل الأسبوع الثاني من شهر فبراير من عام 1258 الميلادي، حيث حاصَرَ المغول مدينة بغداد، وصار الاقتحام قاب قوسين أو أدنى..

الوقت الشمس (الوقت لا يغيب و إنما الشمس هي التي تغيب، المدقق) يقترب من المغيب، فاحمرت السماء و كأن المشهد يرمز بالفعل لغروب دامٍ سيحل على تلك المدينة في الأيام و السنوات القادمة...

بغداد الدائرية المعروف عنها الجمال والمظاهر الخلابة بأبوابها الأربعة وأسوارها وأبراجها، الآن تختبئ تحت ستار الظلام قلقًا من العدو الرابض على أسوارها...

انتقلنا بأحد بقاع المدينة النائمة، فكان من حسن حظنا وقتها خلو المكان من البشر...البيوت مغلقة والدكاكين نادرًا ما نرى منها المُتاح، وأغلب المارة إما في طريقهم لبيتهم أو لبيت الله، حيث لجأ المتدينون منهم أملًا في حماية الرب لهم من قبضة المغول...

أسير بجانب جدي وقد انتقل بعض من خوف العامة من حولنا إلينا..تتناقل الأخبار بين أفواه المارة لتلتقطها آذاننا الصاغية..التجار ينظرون بحسرة وقلق على أموالهم وأرواحهم المهددة بالفناء في أي وقت...

– "جيوش الططر قابعين عالأسوار".

– "القائد مجاهد الدين انهزم...هولاجو ما يبعده عنا غير الله".

– "عم نرحل ونروح عن هون".

– "وين نروح؟ الططر محاصرينّا".

ينتفض أحد الجائلين بحزم:

– "سكّر تمك...الخليفة ما حيتركنا نظيع هذاك..قال لهولاجو ف مكتوب إنه عيواجه غظب الله لو اتجرأ واقتحم هالمدينة".

رد عليه التاجر بغضب:

– "منُو خليفة؟ هو عياكل ويلعب كيف ما يحب مع الجواري وتاركنا هون مع الخوف ينهش ف أجسامنا، ووزيره "ابن العلجمي" الخاين شاطب الحراس من ديوان الجند ومخفف الحماية من عالأسوار... والله عم يقتلنا هذا الوزير.. معاون للططر ومتفق يدخلهم المدينة كي يمسك هوا الحُكم".

اشتد الحوار بين الرجلين فكانت فرصة سانحة لكليهما كي يفرغا شحنات التوتر المحبوسة بداخلهما، فأكملنا سيرنا بعيدًا عن تلك المشادات كي نتجنب لفت الأنظار إلينا... لم أستطع منع فضولي من متابعة تلك اللهجة القريبة جدًا من لهجات الشام في عصرنا الحالي وإن اختلفت في كثير من الألفاظ أيضًا.. أخبرت جدي بذلك، فهز رأسه قائلًا:

– "دا حقيقي...اسمها اللهجة المصلاوية نسبة لمدينة الموصل العراقية..ليها ألفاظ وحروف كتيرة بينطقوها بشكل مختلف عن نطقنا ليها..لكنك تقدر تفهم أغلبها".

أثناء سيرنا المتمهل للاستعلام عن أحوال الناس في ذلك الوقت العصيب، ارتقى لأسماعنا صوت أحد الرجال الملتجئين بالمسجد يحادث صاحبه عن المغول، ويخبره أن "هولاكو" قد جَمَعَ الآلاف لاقتحام بغداد، وأن جيوشه إن اجتمعت على أرض واحدة لما رأيت آخرهم من فرط كثرتهم، وأن الخان الأعظم أرسل مع هولاكو المقالع والمناجيق كي تدك أسوار المدينة دكًا يحيلها ترابًا في وقت وجيز...

الخوف مسيطر بالفعل، والبعض بدأ في ترويج الشائعات، سواء كانت دعمًا للمغول أو دعمًا للخليفة وقواد جيشه ومساعده الأول "مؤيد الدين بن العلقمي"...أخبرني جدي عن ذلك الوزير الذي اتفق مع المغول على الاستيلاء على بغداد مقابل الأمان والحكم من بعد الخليفة المستنصر...تختلف آراء المؤرخين على سبب فعلته تلك، البعض يَردُّها للطمع البشرى الكامن في نفوسنا جميعًا، والغالبية يفسرها لاختلاف مذهبه الشيعي مع المذهب السني للدولة وقتها...الله أعلم بالنيات، ولكن ما لا يمكن إنكاره بالفعل هو دور"ابن العلقمي" في غزو المغول لبغداد...

– "مفيش وقت نضيعه...لازم نشوف فين المكتبة ونلحق نسترد الكتاب قبل ما يتسرق".

– "كتاب إيه؟ أنا لغاية دلوقتي مش عارف بيتكلم عن إيه ولا مهم ليك ليه؟"

– "هقولك بعدين..دلوقتي محتاجين نوصل في أسرع وقت...الدقيقة ليها تمنها".

***

ظللنا في تجولنا نحو الساعة نستفسر من المارة عن موضع المكتبة حتى وصلنا إليها..بجانب قصر الخلافة، وجدناها مبنى شاهق البنيان، عظيم التصميم، وكأنه صُنع بأيدي صائغ ماهر... زخارف إسلامية، ورسوم ونقوش وبوابة شاهقة تستقبلنا عند دخولنا... إنها بيت الحكمة، حيث تسكن الحكمة فعلًا لا مجازًا...

طابقان يجمعان خلاصة علوم الأرض وقتها..وكأن مكتبة الإسكندرية قد انتقلت لأراضي العراق الخصيب، الرفوف مكتظة بلفافات الأوراق الحاملة لمعارف الإنسان والتاريخ، ترجمات نادرة ونصوص بلغات مختلفة... يا للخسارة لما ستؤول إليه الأحداث في الأيام المقبلة!

شد انتباهي أن اغلب تلك اللفافات يتم حمله ونقله لخارج المكتبة بواسطة رجال مختلفي الهيئة، لا يبدو عليهم مظاهر الحرس، بل في الغالب هم مجرد عمال تم تأجيرهم أو أمرهم بنقل الكتب...يبدو أن ما قيل عن "ابن العلقمي" بخصوص نقله للكتب لم يكن كذبًا...اقترب منا أحد الرجال والشك يبدو على وجهه..ثم سألنا بلهجة حادة:

– "إنتم ظمن الرجال؟ أشْنُو مباعدكم عن الكِل؟ فوتوا احملوا الكتب معهم".

أثر جدي الحديث مع ذلك الرجل فهز رأسه في سرعة، وهرع نحو أحد الأرفف، ففعلت مثلما فعل جدي ولحقت به درءًا للخطر...

– "إيه اسم الكتاب يا جدي؟"

– "لأ متدورش انت...راقب لي الناس من حوالينا واتأكد من أن الراجل دا مش شايفنا..أنا عارف مكان الكتاب".

فوجئت بذلك الرد، ولكني فعلت ما طلبه مني بدون إبداء اعتراض..فلأنتظر عودتنا من ذلك الزمان لأعلم منه سر ذلك الكتاب المجهول...

مرت حوالي عشر دقائق قضاها جدي في التنقل بين الأرفف العديدة، حتى وجده أخيرًا وقد علا الانتصار محياه...حسنًا حان وقت خروجنا، دس جدي اللفافة بين ملابسه في خفة وسرعة قبل أن يُكتشف أمره..ثم حمل بعض اللفافات من أقرب رف بجانبه، وأعطاني مثلها لنتظاهر بحملها خروجًا من المكان..

نجحت حيلتنا ولا أدرى كيف...ربما بسبب القلق الذي يجتاح الناس ويمنعهم من التركيز في تلك الأمور..لا أعلم..ولا يهمني ذلك..يكفيني خروجنا سالمين من تحت نظر الحراس والعمال...

ابتعدنا قدر إمكاننا عن تلك المنطقة، وظَلَّ جدي يبحث عن منطقة نائية وتعلو عما حولها لنختبئ بها عن أعين السكان والفضوليين، حتى وجدنا ضالتنا بربوة رملية تنتشر بها بعض الحشائش والصخور بعيدة عن طرقات المدينة وأسوارها قليلًا، ونرى منها

مشهدًا بعيدًا لنهر دجلة وقصر الخليفة وبيوت عامة الشعب المتناثرة من حوله كبيادق الشطرنج حول ملكها...

افترشنا الرمال والليل حالك من حولنا، لا كهرباء تنير تلك البقعة الصغيرة النائية، ولا دليل لاقتراب إنسان من تلك المنطقة..الجميع في بيوتهم ساكنين خائفين... مترقبين لمصيرهم غدًا.. أيكون هو اليوم الموعود؟ أم يمد الله في عمرهم يومًا آخر؟

جدي يترنم ببعض الألحان الهادئة كسرًا للملل وترويحًا للنفس عما سنراه بعد ساعات..

في انتظار المغول...

في انتظار الحقيقة...

***

29

مرت الساعات، وانتصف الليل حتى كاد أن ينتهي...نومنا متقطع يشوبه قلق من بدء الهجوم وقت غفلتنا، فلا نجد الوقت الكافي للعودة لزمننا..اتكأت بمجلسي ونظرت لجدي فوجدته يحاول النوم أيضًا ولكن ما زال مستيقظًا، وجدتها فرصة جيدة لسؤاله عن محتوى الكتاب المختبئ بين طيات قميصه...

– "قلتلك بعدين يا أدهم هحكيلك".

– "إيه الغموض دا يا جدي؟ للدرجة دي الكتاب دا مهم أوي بالنسبة لك؟"

ارتسم الحزن على وجه جدي قليلًا، فلم أتمالك نفسي عن الاعتذار..لم أقصد بالفعل أن أشعره بالحزن، ولكنه اعتدل من مجلسه وصمت قليلًا ثم بدأ في الكلام...

– "من حوالي سنتين، زرت واحد صديقي من زمان في بيته في سوريا...ولما كنت عنده، قعدت أقلب في مكتبته...هو برضه عنده مكتبة زى بتاعتي، لكن مكتبته أضخم، وفيها من الكتب النادرة اللي تخلي بعض خبراء جمع الكتب يضطروا يقتلوه علشان يوصلوا لها...

المهم..كنا ف مرة بنتغدى، وقاللي بعد الغدا إنه هيوريني مفاجأة جابها بصعوبة..بعد ما خلصنا أكل، دخلنا على مكتبته، وطلع من وسط الكتب مخطوطة شكلها قديم جدًا".

قرن جدي كلامه بإخراج لفافة الكتاب من قميصه وبدأ فك رباطها وتقليب أوراقه، حتى وصل لورقة في منتصفه أخرجها من موضعها وأعطاني إياها...

أمسكت بالورقة الصفراء ذات الملمس الجاف، و بمجرد رؤية ما عليها اصابتنى الدهشة!!

رأيت رسمًا يدويًا شديد الشبه بجدي...نفس العينين والملامح والابتسامة الهادئة، وإن كان بملابس مختلفة تشبه ملابس العصر العباسي قليلًا، وبجانبه رجل يحادثه يرتدي ملابس تشبه ملابس جدي أيضًا...أو لعله جدي من كان يرتدي الملابس التي تشبه ملابس الرجل..لا أدري.. تُرى ما معنى ذلك الرسم؟ وكيف وُجد؟

بدأ جدي السَّردَ قائلًا:

– "في رحلة من رحلاتي لبدايات العصر العباسي، اجتمعت بالمتنبي على إني شاعر آتى من مصر، و.."

سألته في دهشة: "المتنبي؟!"

ضحك جدي في هدوء وأكمل:

– "أعجب بي جدًّا لما قرأت عليه شعر من أشعاره اللي كان المفروض هيقولها بعد كده.. وقعدت يوم عنده في ضيافته علشان أقول له شعر كمان...غالبًا لما مشيت ومظهرتش تاني في الزمن دا، قام نسب الشعر دا ليه كأنه من تأليفه".

ضحك مرة أخرى ثم بدأ وجهه في العبوس عندما قال:

– "المشكلة إن المتنبي كان عنده شاب بيخدمه أو بيساعده..مش فاكر..بس الشاب دا كان عنده موهبة الرسم، و ساعتها المتنبي طلب منه من غير ما يقوللي، إنه يسجل مجلسنا مع بعض كتذكار...وذكر بجانب الرسمة دي إنه كان أحد الضيوف الغرباء عن المدينة، وإنه أنس بصحبته جدًّا...

نرجع للحاضر...لقيت صديقي السوري فاتح المخطوطة اللي بقت قديمة ومهترئة على الورقة دي، وبيستعجب من إنه شبهي جدًّا...طبعًا أنا اتفاجئت زيه وساعتها افتكرت الموضوع دا، ولما حكالي عن تفاصيل الرسمة اتأكدت أكتر...كانت غلطة مينفعش تحصل..انا كده أثرت على التاريخ بحدث اتسجل ووصل للحاضر...مكانش ينفع اسبب غلطة زي دي تفضل موجودة...ولما كان صعب إني أصلحها في الحاضر..اضطررت إني أصلحها في الماضي..وطول السنتين دول كان الموضوع في دماغي، وببحث في كل الكتب والمراجع عن وجود المخطوطة دي...

صاحبي عرفني إنها اتنقلت من إيد لإيد، ومن بلد لبلد، لغاية ما وصلت ليه..ومن كام يوم عرفت إنها كانت من ضمن الكتب اللي اتنقلت لمكتبة "بيت الحكمة" ببغداد قبل دمارها بإسبوعين...ولقيت إنها فرصة نادرة إنها تتعوض..ألغي وجود الكتاب دا من حاضرنا وفي نفس الوقت أتأكد من أحداث حرق المغول لبغداد"

أنهى جدي كلامه بزفرة حارة تحمل قلق سنتين من عمره تحملهم حتى يصل لمبتغاه..يا إلهي! لم أدر أن الموقف بذلك الأهمية...عذرًا يا جدي على تطفلي وفضولي...

***

الساعات الأخيرة قبل غزو بغداد...

ما أشبه اليوم بالبارحة – أو بمعنى أصح بسبب الاختلاف الزمني الحالي – فما أشبه اليوم بالغد... جيوش العدو المتربصة على أطراف بغداد، الحاكم الغافل غير العابئ بما آلت إليه أحوال البلاد، والوزير الخائن صاحب الولاء للأعداء، والجيش المفكك الضعيف غير القادر على مجابهة عدوه...وأخيرًا ودائمًا، الرعية الخائفة القلقة الراجية عفو ربها ورحمته بهم....

الليل يلملم أمتعته ويبدأ في الرحيل تاركنا لشمس اليوم الجديد الآتية بالويلات والخراب..ما أسوأه من صباحٍ!

بدأ الغزو..ومن مكمننا البعيد عن أسوار المدينة، رأيت ما يشبه الجيوش تتقدم محطمةً الأبواب والأبراج...هم كالجراد إذا حلّ بمكانٍ

أتوا على الأخضر واليابس، أرى الأراضي الشاسعة تصطبغ باللون الأحمر القاني، وصرخات الموتى والمحتضرين تصم الآذان رغم بعدهم عنا...

بدأت أوائل النيران في الاشتعال ثم امتدت و بسطت قبضتها على سائر البيوت والمساجد...تلتهم بشراهة ما تقابله، فلا فرق بين مبنى أو إنسان أو دابة من الدواب...والسيوف تخترق الأجساد وتشقها لأشلاء دامية...إنها صورة كاملة للدمار كما يجب أن يكون!

جدي صامت وإن كانت عيناه تبوحان بكثير من الكلام...يرمق ما يحدث في أسى وحزن مشوب بمحاولة التركيز والتدقيق فيما يرى..وكأن عينيه آلتا تسجيل تدوِّنُ وتسجل ما يجري ثانية بثانية...لم يقطع تركيزه سوى انفعاله المفاجئ...

– "لأ لأ...كارثة..إزاي وقعنا في الغلطة دي.."

– "إيه المشكلة يا جدي؟"

– "الرؤية مش واضحة من هنا...ومنقدرش نقرب أكتر وإلا هنموت".

انتقل القلق منه إلى جسدي كالمرض المُعدي..فعلًا...ما الحل؟ لا نملك الجرأة الكافية للاقتراب من مدى نظر المغول، ولكننا بحاجة لاستبيان ما حدث للمكتبة...والأهم من كل ذلك...إذا لم نتحرك من موضعنا فسيصل إلينا جنود المغول عاجلًا أم آجلًا....

الدقائق تمر وجدي مضطرب الفكر والجسد، يدور في مكانه كعادته عند القلق الشديد، حتى توقف فجأة وقد أشرق وجهه...

– "لازم نرجع لمكان انتقالنا في أسرع وقت...قبل العصر كل المدينة هتكون رماد ودم".

هرولنا بالفعل باتجاه نقطة انتقالنا...بعد ربع ساعة، بدأنا في الاقتراب من أصوات القتال وصليل السيوف المتقابلة...فليرحمنا الله إذا التفت أحد المغول لوجودنا!

نختبئ بجوار الديار أو بداخلها، نرى الموت ألف مرة كل ثانية، نلقى جثثًا متناثرة أو أشلاء جثث لا ندري كنهها...أفرغت معدتي من هول ما رأيت، فاضطررنا للتوقف لدقيقة..دقيقة واحدة كانت كافية ليرانا أحد الجنود...

و كأننا كمن رأى شبحًا...ركضنا من أجل أرواحنا، وبالرغم من فزعنا، أدركت أن جدي يسلك نفس طريقنا نحو نقطة الانتقال...حمدًا لله على ثبات عقله في ذلك الحين!

اقتربنا من نقطة الانتقال ببضع ديار، وما زال الجندي في أثرنا..أدركت ضرورة التخلص منه، ولكن كيف السبيل لذلك وأنا لا أملك ما أرد به ضرره أو أهاجمه في مقتل؟

نظرت حولي بحثًا عما يمكن استعماله، فلم أجد سوى بعض الحصى...أتكون هي الحل؟ اقتربت من الأرض لأمسك بإحدى الحصوات بكل يأس..لقد أدركت أني ميت لا محالة، فلا ضير من

الموت مدافعًا عن حياتي...وما إن هممت برميها على ذلك الجندي الذي بدأ في الاستهزاء بما يراه أمامه، حتى سمعت خلفي صرخة مخيفة عالية وهمهمات بلا معنى، وبعدها تحول وجه الجندي إلى صورة مجسدة للهلع لم تدم طويلًا قبل أن يفر من أمامنا..

حدث ذلك بشكل سريع للغاية، منعني من تبيُّنه، لكني ما إن أدرت رأسي نحو جدي حتى فهمت ما فعل... لقد استعمل نفس خدعتي السابقة يوم أن كنا بمدينة واسط..توجهت نحوه سريعًا واخترقنا الثقب الدودي ليبتلعنا ويرسلنا نحو الأمان مرة أخرى...

ما إن عدت، لم أستطع منع نفسي من أن أضحك قليلًا..لقد أنساني ذاك الموقف الأخير كل ما رأيته من دمار لوهلة من الوقت...استغل جدي بذكائه سعة خيال المغول وإيمانهم بالسحر والخرافات، وما أقرب العلم للسحر لدى هؤلاء...

مثل ألاعيب السياسة، بعض الخدع لا يمكن أن تفشل مهما يمر عليها من الزمن!

***

بالرغم من رؤيتنا لغالبية أوضاع ذلك الزمان في رحلتنا، فإن جدي اعتبرها رحلة فاشلة، فنحن لم نحقق الهدف الرئيسي منها، وبذلك ضاع منّا ذلك الحدث بأحد أهم تفاصيله، ولا سبيل آخر لكشف حقيقته...

حسنًا، يكفينا العودة بسلام من قبضة جيوش المغول...قليلٌ من يمكنهم التفاخر بعودته سالمًا بعد مواجهته للمغول، وأنا من هؤلاء القليل...أحتاج لحمامٍ دافئ يغسل عني كل ما رأيته ولمسته في تلك الرحلة، فلم أر فيها سوى الموت والدم ممتزجين بالذعر والقلق...وكأني مجبر في زياراتي لأراضي العراق أن أقاسي وأعاني فيها الأمرّين، فلا استمتع بحضارتها أو بفنونها وتراثها...

توجهت نحو الحمام تاركًا جدي في ثورته الهادئة نتيجة فشل الرحلة...لا بد أنه قد واجه ذلك الموقف مرارًا خلال رحلاته، وربما كان أعظمها تأثيرًا يوم أن فشل في مقابلة ابنته يوم زفافها، ذلك اليوم الذي قرأت تفاصيله بعناية في مذكرات جدي..إذن، فلن يدوم غضبه أكثر من دقائق أقضيها أثناء استحمامي...

و بالفعل كان ما كان..خرجت من الحمام منتعشًا قليلًا – وإن كنت في حاجة لنومٍ هادئٍ– لأجد جدي قد أمسك بدفتر قديم يقلّب في أوراقه...تنحنحت فلم يستمع..يبدو عليه الاستغراق الشديد فيما يفعله.. حسنًا، هذا أفضل وقت يمكنني استغلاله للذهاب لفراشي الوثير واقتناص بعض ساعات من الراحة...

***

30

يمكن لبعض ساعات من النوم العميق أن تعطي مفعولًا يقارب أفضل الحبوب المنومة، ويُسأل في ذلك عامل عاد لفراشه بعد يوم مُرهِق في عمله...هكذا كان إحساسي صباح اليوم التالي، نشطًا ومستريح البال..نسيت أو تناسيت مشاهد الجثث والدماء، فما حدث قد حدث من قرون، وإن كان ما زال متكررًا حتى الآن وبذات الأراضي، ولكن ما بيدي حلٌ لما يحدث..فلأعود لحاضري مضطرًا كالثور في الساقية حتى لا أفقد عقلي بين اختلاف الزمان...

كعادتي في الأسابيع الماضية منذ رحلة واسط، تناولت فطوري مع جدي ثم أعقبناه بجلستنا الأثيرة بشرفة المنزل...

بدأت كلامي معه باستفساري عن ذلك الدفتر الذي غاص فيه حتى النخاع بالأمس، فلم يلتفت لندائي وقتها..ابتسم ثم أشار إلى غرفه المكتب طالبًا مني إحضار الدفتر ذاته من على سطح مكتبه...

أحضرت الدفتر الذي تشقق جزء من غلافه وناولته جدي...أمسك بالدفتر في عناية، وفتح أولى صفحاته ثم وجهها ناحيتي..ابتسم وقال:

– "مين دا"؟

اتسعت عيناي وقد رأيت نسخة من جدي ولكنه في ريعان الشباب...ملامحه تشبه الكثير من ملامحي، أو ربما كان العكس هو الأصح..يقف منتصبًا بجوار رجل كبير السن ذي هيبة عظيمة يجلس على مقعد وثير مرتديًا حلة رصاصية فاخرة، وعلى رأسه الطربوش الرسمي للمصريين في عصر الملكية...

– "دا انت يا جدي؟ ودا مين..أكيد والدك الله يرحمه؟"

أومأ جدي برأسه.. ثم أشار بإصبعه نحو صدر والده في صمت ناظرًا نحوى تنبيهًا لشيء غفلت عن رؤيته بالمرة الأولى... أسرعت بالنظر نحو موضع إشارته.. في البدء لم أفهم مغزى ذلك..ثم تنبهت.. تلك السلسلة المعلقة ببدلته والمتوجهة نحو الجيب العلوي... إنها سلسلة الساعة... ساعته الثمينة ذات النقوش والتي لا تظهر في تلك الصورة، ولكني أحفظ نقوشها نقشًا نقشًا...

ابتسم جدي مرة ثانية بعدما أدرك انتباهي لمقصده.. رجع بظهره في مقعده قائلًا:

– "دا ألبوم ذكرياتي يا أدهم...حياتي كلها موجودة بين صفحات الدفتر دا...هتشوف والدي الله يرحمه، وجدتك الله يرحمها، ووالدتك

ووالدك الله يرحمهم ....وصوري أنا كمان...وف يوم من الأيام تقول اسمي وبعده الله يرحمه.."

– "ربنا يطول عمرك يا جدي...متقولش كده".

– "بالعكس يا أدهم، شيء كويس ومهم إنك تفضل فاكر الموت، وإنه نهايتك دايمًا...بكده مش هتخاف ولا تقلق من أي حاجة، مادام في الآخر ليك مصير معروف.."

بدا التأثر على صوت جدي مستكملًا:

– "تعرف إيه أهم سبب بيخليني أسافر للماضي يا أدهم؟"

ساد الصمت قليلًا فأدركت ضرورة إجابتي...فأجبته:

– "علشان حبك للتاريخ دفعك إنك تتأكد من الماضي بدل ما نعتمد على كلام مكتوب ممكن يكون مزور".

هز رأسه ثم اتجه بنظره نحو الشارع:

– "عندك حق.. أنا مقدرش طبعًا أنكر حبي للتاريخ ومدى تحمسي بعد ما قدرت أملك القدرة العظيمة على زيارة الماضي... بس مش دا السبب الأول...الحقيقة إني بسافر للماضي بكل لهفة، لأنه الوسيلة الوحيدة اللي أقدر أهرب بيها من الحاضر...

كل ما أشوف الحاضر..بشوف زوجتي وبنتي اللي ماتوا من زمن وسابوني...بشوف كل الأماكن اللي كنا فيها سوا وخلاص راحت معاهم..بشوف ذكريات، أوقات فرح، أوقات حزن و تعب، خناقات ومشاكل، ومصالحات وحب وسعادة...بشوف كل الحاجات دي

كمجرد صور في الألبوم، أو ملامح قربت تختفي جوا عقلي اللي الشيخوخة قربت تضيعه...

علشان كده كان لازم أرجع الماضي...لازم أغرق في بحر التاريخ واعمل ذكريات جديدة تفضل في دماغي، ذكريات مهما كانت مهمة، مش هتمسح ذكريات حياتي قبل كده، لكنها هتديني حاجة أقدر أعيش بيها الكام سنة اللي باقية من عمري".

التفت نحوي فوجدت عينيه وقد ابتلتا بالدموع...لم يكن حالي أفضل منه على الإطلاق، فلقد انهمرت الدموع من عيني أيضًا تأثرًا بما قال...رغبت في تغيير دفة الحوار، فنظرت نحو الشارع وسألته:

– "إمتى آخر مرة نزلت ومشيت فيها في الشوارع يا جدي؟"

ظننت أن سؤالي سيخرجه ولو لوهلة من حالة الحزن تلك، إلا أن ذلك السؤال كان افتتاحية لحزن أعمق عرفته الآن أكثر من ذي قبل...

– "من حوالي خمس شهور...ومش علشان أتفسح أو أشوف الناس..لأ..علشان أشتري أكل يكفيني الفترة اللي بقعدها في البيت، وكل شهر بنزل أجيب الحاجات لحد ما بعدها بقيت بطلب صبي البقال يبعت الحاجة للبيت....

الناس هي السبب اللي خلاني أبطل أنزل الشارع...بعيدًا عن الجهل وقلة الذوق وانحطاط كل المعايير والتحول السلبي اللي إحنا فيه، أكتر حاجة وجعتني هو تصديق الناس لحاجات عن

ماضيهم..والأكتر من كده مش التصديق بس..لأ كمان ترديدها وتقوية موقفها، لدرجة خلت الأجيال الجاية من بعدهم حفظتها زيهم، وبترددها من غير وعي أو فهم زي آباؤهم...

إزاي هقول للناس فوقوا من الأوهام اللي انتو فيها؟ إزاي هقولهم الحقيقة اللي أنا شفتها في الماضي بعيني؟ ساعتها يا إما هيقولوا عليا مجنون، أو هيرفعوا أياديهم علشان يخرسوني...الناس مبتحبش حد يغير أفكارها الثابتة...هما كده مستريحين، لكن التفكير الكتير وتغيير وجهة النظر متعبين..متعبين أوي...الجهل مريح جدًا.. وجاي تسألني يا أدهم أنا إمتى آخر مرة نزلت الشارع؟"

أنهى جدي كلامه بزفرة حارة بعثت أصداءها المؤلمة في ذاتي أيضًا...خلال الأمس واليوم أفصح جدي عن كثير مما يستتر بداخله، و في كل مرة أدرك مدى ثقل الحمل الذي يحمله على كتفيه وبين جوانبه...

أغلب روايات الخيال العملي التي تناولت فكرة السفر عبر الزمن، نجدها تتحدث عن الأعراض الجانبية البدنية الناتجة من تلك العملية...ولكن في رأيي، إن الضرر الأكثر جسامة من بين تلك الأعراض هو ما يقاسيه المسافر عبر الزمن من أوجاع نفسية وفكرية نتيجةً لما يراه ويقابله...

إن الإنسان إذا انقسمت ذاته بين الماضي والحاضر، تشتت ذهنه وعقله، وتداخلت الأيام فيما بينها، فامتزج فيها التراث بالواقع،والحقيقة بالزيف، وعلم أساب اختلاف حاضره عن ماضيه...

حقًا.. لله حكمته في التفرقة بين الماضي والحاضر، وليرحمنا الله برحمته الواسعة إذ عبرنا الفارق ورأينا ما مُنعنا من رؤيته!

***

"أهلًا وسهلًا بيكم مستمعينا الأعزاء في برنامجكم لمحات تاريخية.. رجعنا لكم بعد انقطاع طويل، وبعيدًا عن ذكر الأسباب..المهم إننا رجعنا.. وبمناسبة الرجوع انهارده حلقتنا موضوعها مشوق جدًا، وواثق إنه هينال إعجابكم... حلقتنا انهارده بتدور حول كلمتين.. زُرياب.. والأندلس.. يا ترى مين دا وإيه علاقته بالأندلس، هنعرف كل دا واكتر بس فاصل غنائي قصير ونرجع لكم تاني بعد دقائق.. فانتظرونا".

ضغطت زر غلق الميكروفون الداخلي لألمح "أروى" خلف زجاج غرفة التسجيل وقد تلألأت عيناها بدموع الفرح، وقد أشارت بيديها بإشارة النصر...بادلتها الابتسام فأشارت لي بما معناه أن استعد لإكمال تسجيل الحلقة، فأسرعت لترتيب أوراق الحلقة منتظرًا انتهاء الفاصل...

مر الوقت بسلام، وانتهيت من تسجيل الحلقة الأولى لي بعد عودتي بمساعدة "أروى" في الإعداد، التي أدارت الاستوديو كقائد عسكري مُحنَّك، يأمر فيُطاع...اكتشفت العديد من المزايا في "أروى" كانت غائبة عن عيني في الفترة السابقة...كما استطعت أن أستحوذ على إعجاب العديد من المستمعين، والذي ظهر جليًا في التفاعل الشديد والمبهر خلال الحلقة بمكالماتهم ورسائلهم...ظهرت

السعادة واضحةً على وجه "أروى" التي كانت الأولى في استقبالي بعد الحلقة..هرعت تجاهي كيمامة بيضاء محلقة والحماسة تتفجر في كلماتها..

– "إيه دا؟ انت شكلك كنت مقضيها تدريبات في فترة الأجازة دي....إيه الروعة دي يا أدهم!"

– "دا بس بركة وجودك جنبي يا أروى.."

– "أه طبعًا مقدرش أنكر دوري الفظيع معاك، بس بجد...انت كنت بتتكلم في موضوع الحلقة بإحساس عالي جدًا...أنا لثواني افتكرتك كنت وسط الناس دول ساعتها".

ابتسمت ابتسامة هادئة في صمت، وما خفي بداخلي كان أعظم.. فلو تعلم أني كنت وسط الناس في ذلك الزمن بالفعل...تخيلت هذا الحدث فزادت ابتسامتي وتحولت لضحكة قصيرة...

أجابت "أروى" في جذل:

– "أيوه اضحك كده...الحمد لله إنك رجعت تاني وأحسن من الأول كمان".

بالفعل حمدًا لله على تلك العودة القوية...سأحاول أن أحافظ على هذا النهج والمنوال...ولا مشكلة، فالمواضيع المطروحة في الحلقات القادمة لن يصعب إيجادها...شكرًا لك يا جدي على هذه الفرص الذهبية..

قاطعت "أروى" أفكاري صائحة:

– "أنا محضرالك مفاجأة!"

أجبتها مصطنعًا التوتر:

– "ربنا يستر".

قطبت حاجبيها مثل الأطفال كعادتها ثم قالت:

– "لأ بجد.. لازم نحتفل انهارده...تعالا أنا عازماك على الغدا على النيل...ياللا بينا".

غادرنا المحطة معًا باتجاه كورنيش النيل، وخلال الطريق أخذت "أروى" تثرثر عن أحلامها بخصوص البرنامج الذي صار مشتركًا بيننا...ثم اتجهت بكلامها عن روعة المطعم المطل على النيل حيث سنتناول الغداء اليوم...لم أتكلم بكلمة واكتفيت بإبداء الموافقة على كلامها...لم أرد أن أقاطعها، مكتفيًا بسماع صوتها الهادئ المحبب..

وصلنا للمطعم، لأكتشف مما أراه أنها قد أعدت كل شيء مسبقًا..كم أعشقها تلك الفتاة! استمتعنا بذلك الغداء الشهي، ونسمات النيل المسالمة تهل علينا بين الحين والآخر...

بعد انتهائنا من الغداء، أخرجت "أروى" من حقيبتها علبة صغيرة مغلفة كعلب الهدايا...وبأناملها الرقيقة قدمتها إليّ قائلة:

– "اتفضل يا سي أدهم...أما نشوف هتعجبك ولا لأ".

ابتسمت لها قائلًا:

– "كل اللي ييجي منك جميل يا أروى".

فضضتُ غطاء العلبة لأجد بداخلها علبه من القطيفة الحمراء، ترتكز بداخلها ساعة يد فاخرة، بإطار معدني براق وحزام جلدي بني اللون، بينما نُقشت زخارف متداخلة بشكل بديع على سطحها الداخلي، وظهرت الأرقام واضحةً بلون أحمر قانٍ...

لاحظت "أروى" انبهاري فصفقت بيديها في استمتاع...بادلتها الابتسام مانحًا إياها ما أمكنني من كلمات الشكر والاعتزاز بتلك الهدية الرائعة...بينما بداخلي تذكرت ساعة جدي، و كأنه ينقصني مزيد من الساعات من حولي...

***

مرت الأيام من بعدها في هدوء نسبي حتى اقتربت من إتمام شهرٍ كاملٍ بدون أي مشكلات خطرة أو مفاجآت صادمة...عدت للبرنامج الذي صار في موضع أفضل من سابقه بكثير، وعلاقتي عادت مع "أروى" لصفائها المعتاد، وقد استقرت حالة والدها الصحية، فابتعدنا عن القلق والحزن لفترة طويلة..

تسببت كثرة ارتباطاتي في تلك الفترة بتوقف مؤقت لرحلاتي مع جدي، فأحسن جدي استغلال ذلك التوقف بالتعمق الزائد في قراءة كتب التاريخ.. انطوى جدي على مكتبته فدام استغراقه لأيام، يقطعها حديثنا ومناقشاتنا ثم يعود مرة أخرى لعشقه الأول والأخير بحثًا عن زمن رحلتنا القادمة...تلك الرحلة التي تأجل موعدها لأكثر

من مرة، وكأنها تنتظر وقتها الخاص لتكشف فيه عن أسرارها... يا للأسف! ليتني علمت وقتها ما كان سيحدث بتلك الرحلة، ربما ما كنتُ قمت بها، ولكنه قدرنا...الذي لا مهرب منه!

***

31

– "إيه يا عم أدهم؟ مفيش ولا سلام ولا كلام بقالك فترة؟"

جاءتني تلك الرسالة المفاجئة من صديقي القديم "أحمد ياسين"، لتبرز أعلى الشاشة بلون التنبيه الأحمر المميز وسط الأشرطة الزرقاء لموقع الفيس بوك...تحركت أصابعي لتكتب ردًّا سريعًا يمنع سوء الفهم..

– "لأ والله يا أمريكاني...كان عندي شوية مشاغل تقيله الفترة اللي فاتت..مانتا عارف إن البرنامج بتاعي رجع تاني والحمد لله".

– "أه يا عم...وصوتك ملعلع في الراديو..ألف مبروك يا أدهم..بس إيه..مش هنشوفك قريب؟"

– "يا ريت...انتو واحشيني فعلًا يا رجالة".

– "خلاص..فضي نفسك بكرة، هنعدي عليك واهو فرصة نلحق الواد شريف قبل ما يبدأ ينشغل عننا".

– "إيه اللي حصل لشريف؟"

– "هههههههه..انت نسيت يا بني...دا فرحه خلاص الإسبوع الجاي".

قرأت تلك الكلمات المتراصة على الشاشة لتتبادر إلى ذهني فورًا تلك الحقيقة...لقد مرّ حوالي الشهرين منذ أن تقابلنا معًا بذلك المقهى...ووقتها أخبرني بأن زواجه سيتم خلال شهرين...تبًا لذاكرة السمك التي أمتلكها!

– "أه صحيح...الواحد نسي فعلًا الموضوع دا...تمام..يبقى بكرة معادنا علشان نباركله ونجهز نفسنا للفرح".

– "ماشي...سلام يا أدهم..."

***

جاء اليوم التالي، واجتمعت الصحبة مرة أخرى...جميعهم أتوا كرُسلٍ للسعادة، فما إن رأيتهم آمنت برسالتهم.."صبحي"، "أحمد"، "يوسف" مصطحبًا توأمه غير السيامي "خالد" ثم نجم الليلة "شريف"..

بأحد مقاهي الزمالك كان لقاؤنا...دارت العديد من الحوارات بيننا، ولكن كان موضوعنا الأول والأخير هو حفل زفاف صديقنا "شريف"..

وضعنا الاتفاقات وقمنا بترتيب الأمور بكل جدية وكأننا في مؤتمر يعقده مجلس الأمن الدولي... ستحضر ثلاث سيارات ينقسم فيها أعضاء الشلة، بينما أصر "خالد"على تولي زمام قيادة السيارة التي ستقل العروسين بنفسه...لم نختلف حول هذا الشأن كثيرًا، فانتفخ صدره في فخر كمن يقود مسيرة النضال ضد الأعداء..

انتهى اللقاء ولم تنته ترتيبات حفل الزفاف..قضيت الأيام التالية مع "شريف" و"أحمد" وأحيانًا "صبحي" الذي كان ينتهز أوقات انتهائه من العمل ليلحق بنا ويساعدنا في إتمام التجهيزات..

تعاوننا معًا وكأنه حفل زفاف كل فرد منا، انتهينا من إرسال دعوات الفرح والتأكد من حجز قاعة الزفاف، والتأكيد على الطهاة بقوائم الطعام المطلوبة...لم يشعر والدا "شريف" بأي صعوبات جراء كل تلك الارتباطات، فقد كانت مساهمة الجميع خير عونٍ لهما على أداء تلك المهمة على أكمل وجه..

وأتى اليوم الموعود.. يوم الزفاف..يوم الفرح..ليلة العمر...كلها مصطلحات لذلك اليوم المفترض فيه شيوع البهجة وكثرة السعادة والإسعاد...

***

– "إنتي فين؟ أنا واقف تحت البيت بقالي ساعة!"

أتاني الرد على رسالتي لـ"أروى"على هاتفي المحمول بعدها بدقيقتين..

– "أنا نازلة..ثواني بظبط المكياج...أسفة".

أثناء وقوفي أسفل مسكن "أروى" بمدينة نصر، نظرت في ساعتي لأراها قاربت على الثمانية مساءً... اتفقنا على أن أمر بمسكنها لنذهب معًا لزفاف "شريف" القريب نسبيًا منها، وأن نصل لقاعة الفرح خلال ربع ساعة، إما بسبب ذلك التأخير وزحام المواصلات، سيكون من حسن حظنا إذا وصلنا قبل التاسعة...

تبًا للنساء إذا تأخرن في المواعيد لأسباب تتعلق بالتأنق والتزين... حينها تصير الثواني ساعاتٍ والدقائق أيامًا... لقد ارتديت أفخم ثيابي وتعطرت وتأكدت من أناقة مظهري، ولم يستلزم ذلك إلا خمس عشرة دقيقة بالتمام والكمال... فما بال النساء؟

دقيقة أخرى، ثم انفرج باب مسكن "أروى" عن ضياء باهر... أسحب كلماتي بخصوص النساء...فليتأخرن حتى ولو لقرون طوال، ما دام ذلك التأخير سيجلب ما أراه أمامي الآن!

جوهرة متلألئة؟ ملاك سماوي؟ قديسة من العصور الوسطى؟ أمام ناظريَّ رمز للأنوثة والرقة الإنسانية، تدثرت بفستان وردي اللون يعلوه وشاح أبيض من الحرير، بينما لمعت سلسلة ذهبية فوق جيدها، والتفَّ على رأسها الدقيق حجاب هادئ يوافق لونه لون الوشاح، وتكحلت عيناها الخضراوان فتحولت لأيقونة حقيقية للجمال...كم أنا سعيد الحظ بوجودي معها!

اقتربت نحوها بانبهار..لاحظت "أروى" انبهاري فابتسمت في حياء ثم قالت بدلال طفولي:

- "بطّل تبص عليا كده كتير...بتكسف".

ابتسمت لها في صمت، ودامت ابتسامتي مما جعلها تسارع بالقول:

- "هنتأخر على الفرح يا أدهم!"

***

أوقفت إحدى سيارات الأجرة لإيصالنا للفرح..لطالما سألتني "أروى"عن تفضيلي لتلك الطريقة بدلًا من اقتناء سيارة خاصة، فيكون ردي دائمًا غامضًا أو هروبًا من السؤال...لا يمكنني مصارحتها بعقدتي من قيادة السيارات، لا سيما أنها كانت سببًا في وفاة والدي منذ سنوات عديدة...

أرمق الطريق من نافذة السيارة، لأرى صفوفًا بلا نهاية من السيارات قد التصقت كل واحدة بمؤخرة نظيرتها كمتحرشٍ سمجٍ في إحدى حافلات النقل العام المتهالكة...ابتسمت في سريٍّ لتلك الخاطرة، فتنبهت "أروى" لذلك..سألتني في هدوء:

- "إيه اللي مضحكك كده؟ مش إحنا المفروض إننا متأخرين على الفرح؟"

- "مش مشكلة التأخير مادام انتي معايا.. بس اللي ضحكني إني بتخيل الفرح اللي إحنا رايحينه.. نفس الطقوس والحركات اللي بتتعمل كل فرح مع الناس.. بس بالرغم من كده، الناس بتبقى فرحانة".

نظرت لي "أروى" في استغراب ثم قالت:

– "وإيه الغريب في كده؟؟ دا حتى اسمه فرح...يعني الناس بتروح عشان تفرح".

– "مقصدش كده..أقصد إن الموضوع بيقلب بملل...أي موضة تطلع، تلاقيها انتشرت في كل الأفراح، حتى لو ملهاش معنى أو سبب..بس بقت قانون لازم تتعمل وإلا كارثة هتحصل".

– "وجهة نظرك منطقية شوية...بس سيب الناس تفرح يا أدهم...ليه الكآبة دي يا جدع؟"

ضحكنا قليلًا وظللنا في تسامرنا الهادئ حتى مرت حوالي النصف ساعة في ذلك الزحام...ربما كان من الأفضل لنا أن نقطع تلك المسافة القصيرة نسبيًّا مشيًا على الأقدام...أكاد أجزم بسرعة وصولنا وقتها...

أشارت عقارب الساعة للتاسعة والربع، بينما خطوت مع "أروى" أولى خطواتنا خارج الحافلة في ركض سريع نحو القاعة..وصلنا أخيرًا لنجد حفل الزفاف قد بدأ بالطبع..لا مشكلة..فما فاتني بالتأكيد لم يكن سوى الزفة المعتادة، وأسماء الله الحسنى التي يتبعها أغانٍ راقصة...قمة الازدواجية!

وكما توقعت..نحن الآنَ في مرحلة الأغاني الشبابية المعتادة...لم تتأجج حرارة الحفل بعد...

رأيت الشباب قد اندمجوا بالحاضرين، وما إن رآني "أحمد" حتى أتى تجاهي متأنقًا كأبطال أفلام السينما..ألقى السلام ورحب بـــ"أروى"، ثم عاتبني على تأخري... ثم تبعه الآخرون بالمجيء... اجتمعنا معًا كوننا رجالًا، وانضمت "أروى" لخطيبتيَ "يوسف" و"خالد".. خطيبة "يوسف" الملقبة بـــ"منى" كما عرفت بعد ذلك قد عقصت شعرها على طريقة ذيل الحصان، وارتدت نظارة طبية رقيقة.. متوسطة القوام، ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، وليست بالممتلئة ولا النحيفة، بعكس أختها الأخرى "ميار" خطيبة "خالد" التي كانت ممتلئة للغاية... "دبدوبة" كما وصفها "خالد" في لقائنا قديمًا... لكن لوجهها ملامح هادئة مرحة، واشتركت مع أختها "منى" في بياض البشرة والشعر الأسود الفاحم...

بضع عبارات التعارف السريعة، لينطلق الرجال نحو مناطق تجمعهم حول "شريف"، وتندس "أروى" مع الفتاتين وسط جموع صديقات زوجة "شريف"..

استقبلني"شريف" بسعادة بالغة، احتضنني وشكرني بكلمات متقطعة لم أسمع نصفها بسبب ضجيج الموسيقى العالي...

دقائق ثم بدأت مرحلة الأغاني الصاخبة...أغاني المهرجانات اللعينة...كلمات منطلقة كالرصاص مع طرقات صاخبة وموسيقى مزعجة..إنه المزيج السحري للإصابة للصداع النصفي!

يهتز الشباب باهتزازات مضحكة على سبيل الرقص، بينما التففنا جميعًا حول "شريف" مبتهجين لفرحته...نشر وجودنا جوًا من

السعادة في المكان، فتراقص الجميع وهلل الضيوف وتعالت الصقفات وسط عشرات من عدسات الكاميرات المسلطة نحو العروسين...تتلاقى عيناي بعيني "أروى" فأغمز لها بسرعة، لتبادلني الضحك والابتسام...الليلة عامرة بالمتعة والفرحة بالفعل!

يأتي وقت الطعام..فتصمت الأفواه عن الغناء والصياح، ليتحول انتباهها لوظيفة أهم...الأكل..

كعادة حفلات الزفاف المصرية...رأيت بعض من الحاضرين وقد ملأ طبقًا أو اثنين بجميع أنواع الطعام، بلا اهتمام لعدم تناسق تلك الأنواع...فترى اللحوم وصدور الدجاج والخضراوات بجميع أنواعها وقد امتزجت بالحلوى أو بالمقبلات...

دام الصمت النسبي للحاضرين نحو نصف ساعة ازدردوا فيها محتويات إطباقهم...الخمول والكسل يبدآن في الظهور برؤوسهم وسط الضيوف، فتعاجلهم الموسيقى بالهجوم معلنةً أنه لا وقت للتكاسل...فالآن وقت الرقص مرة أخرى..

لم أرغب في الرقص ثانيةً، فخرجت من القاعة لأستنشق بعض الهواء النقي...بمجرد خروجي رأيت "خالد" مستندًا على جدار رخامي و بين أصابعه بقايا سيجارة كان يدخنها...اندهشت لذلك فسألته:

– "انت بتدخن يا خالد؟"

– "لأ خالص...دي حاجة تفاريح كده عشان اهارده يعني يا حج أدهم..هاهاهاهاها"

انزعجت منه، وبادرته بالسؤال:

– "السيجارة دي منظرها غريب كده ليه يا خالد؟ إوعى تكون سيجارة محشية؟"

– "أه سيجارة محشية...جواها رز بالخلطة واللحمة المفرومة...مد إيدك وبالهنا والشفا".

أمسكته من ذراعه وصحت به محاولًا إخفاض صوتى:

– "يخرب بيتك يا بني آدم...عاوز تودي شريف ف داهية؟ جايب حشيش معاك في الفرح؟"

نظر لي "خالد" في استنكار وقال بصوت خفيض:

– "يا أدهم متكبرش الحكاية...دي سيجارة واحد صاحبي كان عاوز يديها لشريف، وشريف رفض..قلت أجربها أنا...حد يقول للرزق لأ؟ انت عارف الحشيش بكام دلوقتي يا برنس؟"

تركت يده متأففًا وأنهيت حوارنا قائلًا:

– "خلاص امشي دلوقتي...وياريت محدش يعرف باللي حصل دا...مش عاوزين مشاكل".

– "مشاكل إيه يا كبير...دا الليلة هنا وسرور، أوعدك إنك مش هتنسى الليلة دي".

عدت إلى القاعة غاضبًا مما حدث، وحاولت الاندساس بين الضيوف مخبئًا غضبي بينهم إلى أن تنتهي تلك الليلة..دام الرقص

لساعة كاملة، ثم قارب الفرح على الانتهاء، فعادت الأغاني لهدوئها الأول...وقلّ عدد الحضور حتى اقتصر على عائلتي العروسين والأصدقاء المقربين...

***

تصدح"فيروز"بكلمات أغنيتها الأثيرة "سهر الليالي" معلنةً الانتهاء الرسمي لحفل الزفاف...فلتنسحب الجيوش حاملةً غنائمها من تلك المعركة العظيمة...اصطحبنا العروسين لخارج القاعة في إعادة مصغرة لزفة بداية الفرح...أسرع "خالد" مهرولًا نحو سيارة العروسين بينما تحركت معدته الممتلئة أمامه بشكل كوميدي أثار ضحكنا جميعًا...

استقر "شريف" وزوجته بالمقاعد الخلفية لسيارته التي تولى "خالد" قيادتها، وجلست "ميار" بجانب "خالد"، بينما ذهبت مع "أروى" لسيارة "أحمد" الذي جلس بجانبه "صبحي"...وفي السيارة الثالثة بعدنا كان "يوسف" وخطيبته بمفردهما..وبعدهم طابورًا حافلًا بالسيارات التي تقلّ عائلتي العروسين...

الساعة تقترب من الثانية بعد منتصف الليل...الطرق شبه خالية في مشهد نادر الحدوث في قاهرة المعز...قافلة السيارات تنهب الطريق نهبًا وقد تباينت أصوات آلات تنبيهها صانعةً سيمفونية غريبة لحنها الأساسي هو السعادة...ولا شيء غيرها...

تتقدم المسيرة سيارة العروسين بقائدها الجسور "خالد" بينما تتبعناهم جميعًا..يقوم بعض قائدي السيارات الأخرى من أقارب العروس بعمل بعض الحركات المتهورة بالسيارة، فاستفزت تلك

الحركات النوازع المتهورة داخل نفس "خالد"، فبادلهم الحركات التي أداها بمهارة شديدة...يصيح الجميع من فرط الإثارة وتتعالى أصوات آلات التنبيه السعيدة...

ضغط "خالد" دواسة البترين في تهور، لتنطلق السيارة بسرعة تفوق 160 كم/ساعة...طريق "صلاح سالم" الواسع قد صار كحلبة السباق الجاهزة لقيادة "خالد"الجامحة...يبدأ "خالد" في سلسلة من الحركات المتهورة مرة أخرى باحترافية كاملة، وقد تعالى صوت ضحكات الجميع استمتاعًا بما يرونه...

حدث ما حدث بسرعة البرق...صوت احتكاك واصطدام غريبين، أعقبه ارتقاء أغرب للسيارة في الهواء، ثم دورانها لدورتين سريعتين في الهواء قبل أن تلاقي الأرض على جانبها الأيسر وتكمل مسافة مئات الأمتار زحفًا بفعل القصور الذاتي بينما تراقب عيوننا الذاهلة كل ذلك في صمت!

***

32

نشعر بإحساس الصدمة عندما ترى عيوننا ما تظنه خيالًا، وقد صار حقيقة لا جدال فيها...و كأن قنبلة قد انفجرت على بعد خطوات منك..أو كرؤية أحلامك التي شقيت من أجلها، قد تبخرت في لحظات معدودة...

لكل منا لحظة واجه فيها صدمة حياته..فلا داعي لتلك الأمثلة التي أطرحها..تذكر صدمة حياتك..تذكر إحساسك في تلك اللحظة، حينها قد تقترب ولو بقليل من إحساسي عندما رأيت ما حدث...

لقد تجمد بنا الزمن للحظة..أطلقت جميع السيارات مكابحها في آن واحد بصوت هائل..أكانت تلك الصيحات الملتاعة وهمًا نسجه عقلي الذي توقف عن التفكير كتلك السيارات المتوقفة؟ هرول العشرات نحو السيارة المنقلبة على جانبها الأيسر...تداخلت الأصوات ما بين صرخات أنثوية وصياح ذكوري بسرعة لإعادة السيارة لوضعها

الصحيح..أحاول تبين مصير الركاب الأربعة، فوجدت الدماء الحمراء هي اللون الغالب على المشهد..يا الله!

أسرع البعض بطلب سيارة الإسعاف التي جاءت بعد عشرين دقيقة كاملة...عشرون دقيقة لم نتمكن فيها إلا من إخراج "شريف" بصعوبة من حطام السيارة التي تحولت لكتلة غير واضحة المعالم والزوايا..

انتقل الركب إلى المستشفى، بينما صمتت آلات التنبيه حزنًا أو ربما لم تفق بعد من صدمتها...لم أرغب أن تكمل "أروى" معنا تلك الليلة السوداء، فقمت بإيصالها لمترلها مستقلين أول سيارة أجرة رأيناها أمامنا...أنزلتها أمام مترلها، فنظرت لي في قلق بينما دموعها لم تجف وقالت:

– "والنبي طمنّي عليهم يا أدهم...متقلقش...إن شاء الله خير".

أجبتها في انكسار:

– "ربنا يستر يا أروى".

تابعتها بأنظاري حتى أغلقت باب مترلها خلفها، بينما تلاقت عيوننا في لحظة أخيرة حملت ما يموج به صدرنا من حزن وقلق دفين...

أسرعت عائدًا نحو المشفى، بينما لم تتوقف شفتاي عن ترديد الأدعية وآيات القرآن... يا الله ارحمنا برحمتك... ألا نهاية لتلك الأحزان المتعاقبة؟

وصلت في وقت وجيز، فصعدت للدور الثالث حيث توجد غرف الطوارئ، هالني رؤية نقاط عديدة من الدماء صانعةً طريقًا مموجًا باتجاه الغرف... لا بد أنها دماء الضحايا أثناء نقلهم... يا له من تمهيد للفظائع التي سأراها الآن... ثبتّ قلبي يا الله!

رأيت "أحمد" في مقدمة المجتمعين، أخبرتني دموع عينيه بنصف ما وددت ألا أسمعه... الهلع والقلق يسدل أستاره على ردهة الدور الثالث، بينما ازدحمت بأقارب الضحايا الأربع... ضحايا... حتى الآن لا أستسيغ ذلك الوصف، لقد صاروا أرقامًا في إحدى قوائم المستشفى... مجرد جسد هامد لفظ الروح منه...

انضممت وسط الجموع حتى وصلت لـ"أحمد" الذي جلس بجواره باقي الرفاق...الألسنة لا تتوقف عن ترديد الدعاء، والعيون لا تأبى أن تصمت عن دموعها..أميل على "أحمد" لأستفسر منه عن آخر الأنباء، فيتمتم في حزن:

– "الصدمة في العربية كانت على الجنب الشمال...خالد ومرات شريف هما اللي خدوا الضربة جامد، وحالتهم صعبة وحرجة جدًا..ربنا يستر يا أدهم..الدكاترة رايحين جايين ووشهم جايب ألوان"

لاحظت بالفعل حالة الهرج السائدة بين الممرضات والمساعدين والأطباء، لا بد أن غرفة العمليات قد صارت كساحة القتال من فرط الدماء والأشلاء...

أكمل "أحمد" وقد بدأ صوته في التهدج:

– "أما شريف وميار إصاباتهم أخف شوية من الباقيين، بس التشخيص الأولى ليهم عبارة عن كسور متفرقة وتهتك في بعض الأنسجة...لسه منتظرين الدكاترة يخرجوا يعرفونا أي خبر جديد".

– "طب إحنا منقدرش نساعد بأي حاجة دلوقتي؟ مش معقولة هنفضل قاعدين كده مستنين الأخبار السودا دي؟"

– "للأسف يا أدهم، مفيش في إيدينا دلوقتي غير الدعاء ليهم...يا يقوموا بالسلامة...يا يرحمهم ربنا من العذاب اللي هما فيه"

أصابني الوجوم من الجملة الأخيرة...هل الموقف بتلك الصعوبة حتى وصل بنا الأمر لتمنى الموت لهم رحمةً بهم؟! يا الله!

***

استمر الحال كما هو لمدة نصف ساعة، تعاقب فيها مرور الأطباء المذعورين...الحالات لا يبدو عليها الاستقرار..بالعكس..أشعر بتدهور أوضاعهم من مرأى وجوههم..

أتى البشير أخيرًا..ولكن بدلًا من البشرى، أتى لنا بأسوأ الأنباء...خرج طبيب شاب من غرفة العمليات نحونا، على وجهه يبدو التوتر واضحًا..مسئولية ثقيلة يحملها كاهله، ولا بد له من تبليغها لهؤلاء المكلومين...أخرجَ أوراقًا من جيب معطفه الأبيض، ثم بدأ في التحدث بصوت مرتعش:

– "الحالة رقم 1276..الآنسة"ميار هشام محمود".

نظرت "منى" شقيقة "ميار" نحو الطبيب في ترقب، بينما وضعت يدها بعصبية على فمها..

– "إصابة شديدة بالنخاع الشوكي وكسر في العمود الفقري نتج عنه شلل تام في النصف السفلي من الجسم".

صرخت "منى" في ألمٍ، بينما بدأت دموعها في الانهيار، كسا الحزن وجوه الباقين، بينما احتضنها "يوسف" وقد سالت دموعه معها في صمت...

أكمل الطبيب أخباره المشئومة:

– "الحالة رقم **1277**...الأستاذ "شريف البهنساوى"... كسور وكدمات متفرقة في الحوض والذراعين وكسر مضاعف بالساق اليسرى، يستلزم وضعها في الجبس لمدة لا تقل عن ثلاث أشهر..بس احتمال كبير تسبب شوية عرج بعد الشفاء..الحالة المفروض تستقر خلال ساعتين".

تبادلت النظرات القلقة مع باقي الرفاق..حمدًا لله على كل شيء، نسبيًا..فإن "شريف" قد تمكن من عبور تلك الأزمة بأقل الخسائر...

صمت الطبيب قليلًا...وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة..ثم ألقى بقنبلتيه بكل هدوء كمن اعتاد على ذلك الفعل..

– "الحالتان رقم **1278** و **1279**..الأستاذ "خالد عبد الرحيم" والآنسة "إيمان كريم"...البقية في حياتكم".

صمت رهيب لجزء من الثانية...أحقًا قالها؟ توقفت العقول عن الاستيعاب، ثم رضخت للحقيقة المرة، لتتوالى صيحات الحزن ويتعالى صوت البكاء والنحيب من حناجر الحاضرين...أنا والرفاق مذهولون تمامًا...خلال ثوانٍ قليلة فقدت الصُحبة أحد أعمدتها الأساسية...كشكل هندسي فقد ضلعًا من أضلاعه... لن يعُود الشكل كما سبق...رحمك الله يا خالد...في نهاية عمرك أبكيتنا بعدما اعتدنا منك على الإضحاك ولا شيء سواه!

***

يرغمنا الحزن على السكوت...ولا شيء غيره، فالنفوس ضاقت بتلك الحادثة، ولم يعد باقيًا وسطنا إلا البكاء، والقلق على مصير الناجين...تُرى كيف سنخبرهم بما حدث؟ من أين سنستجمع قوانا ونبوح لهم بحقيقة وفاة أقرب الأقرباء؟

"شريف" الذي فقد زوجته قبل أن يبدآ حياتهما معًا...و"ميار" التي ستكمل حياتها بدون خطيبها المرح وقدرتها على المشي والانطلاق في أي مكان بكل سهولة؟

رحل البعض عن ردهة غرف الطوارئ، بقي القليل وأنا منهم بانتظار استقرار حالة "شريف"..مرّ ما يقرب من ساعتين ونصف ثم خرجت إحدى الممرضات لتعلن عن استقرار نسبي لـ"شريف"، مع الأخذ في الاعتبار منع دخول الزائرين إلا في اليوم التالي...

لم نناقش الممرضة بخصوص ذلك القرار..لقد كان قرارًا صائبًا، فلا أحد قادر على مواجهة "شريف" ونحن في تلك الحالة...غدًا يوم

آخر يمكننا فيه الاستعداد لأخباره بتلك الفظائع المتتالية... عافاكما الله يا "شريف" و"ميار"، فالأسوأ لم يأتِ بعد...

تركنا المشفي وقد أشرقت الشمس بالفعل، والناس من حولي ذاهبون إلى أعمالهم، بينما أنا أعود لمنزلي محاولًا دفن أحزاني في فراشي، تاركًا خططي لليوم الجديد بعدما أستيقظ...وقتها سأعلم كيف سنخبر "شريف" و"ميار" بما حدث...

وجدت جدي ما زال نائمًا...أسرعت لغرفتي قبل أن يستيقظ من نومه،لا قدرة لي الآن للشرح لأي أحد مهما يكن...فليكن النوم راحة لي من كل تعب، ودواء لكل حزن...

في نومي، عاودني مشهد الحادثة مرة أخرى في أحلامي...أو كوابيسي، فما حدث لا يمكنني تصنيفه إلا بالكابوس...يا ليته ما حدث... الحياة يمكنها أن تكون في طبيعتها قاسية بالفعل، فكيف تصير إذا رحل عنا أحبابنا؟ تذكرت إحساسي وقتما علمت بفقدان جدي... كم تمنيت ألا اشعر بذلك مرة ثانية، وكانت معجزة إلهية ما حدث بعدها من اجتماع غريب وعودة سالمة مع جدي الحبيب...أما الآن فلا رجوع لمن فقدته...رحمكم الله يا "خالد" و"إيمان"...في جنة الخلد يا صديقي العزيز...

استيقظت على رنين هاتفي...لأجده "أحمد" الذي بدا الحزن بالتأكيد واضحًا في نبرة صوته...لم تكن ليلة الأمس بالسهلة على الإطلاق لنا جميعًا...

- "إزيك يا أدهم؟"

- "الحمد لله يا أحمد....الحمد لله على كل شيء".

- "إحنا رايحين انهارده لشريف...هتيجي؟"

- "أه أكيد...إدوني ساعة بالكتير وأكون عندكم".

- "يادوبك نكون وصلنا برضه....أشوفك هناك بأه..سلام".

- "سلام"

انتهت مكالمتنا الجافة...لم يقصد كلانا بأن يجعلها كذلك، ولكنها صعوبة الموقف التي طالتنا جميعًا... وكأن "خالد" رمز بهجة المجموعة قد رحل آخذًا بهجته معه تاركنا في أعماق الحزن وحدنا...

خرجت من غرفتي متثاقلًا، لأجد الشقة هادئة خاوية كما هي...أما زال جدي نائمًا حتى وقت العصر؟

دلفت إلى غرفته في هدوء خشيةً أن أوقظه من نومه..راقبت جسده الممدد على السرير لوهلة، وما إن تأكدت من حركة تنفسه المنتظم اطمأننت وتركته يكمل نومه في هدوء...تلاعبت الظنون بعقلي لثوانٍ قليلة ظنًّا مني بسوء قد نال من جدي، ولكن الحمد لله كانت مجرد ظنون سوداء...يكفيني ما أنا به من مصاعب الآن!

رأيت ورقة بيضاء بجوار غرفة جدي لم أنتبه لها من قبل، قرأتها في سرعة لأجد كلمات جدي بها تخبرني بأنه استيقظ ووجدني نائمًا بملابس الزفاف، فآثر تركي نائمًا كي أنال كامل راحتي...ستظل حريصًا على النظام يا جدي كما عهدتك، فلم يفتك أن تترك ملاحظة لي بسبب حدث بسيط كهذا...

تركت جدي ينعم بنوم القيلولة اليومي، وذهبت أنا نحو المشفى لأقابل الأصدقاء...يا الله ثبت قلوبنا أمام صديقنا المكلوم...ما رأيناه البارحة شيء، وإخبارنا بنتائجه لـ"شريف" شيء آخر تمامًا...

***

تقابلنا جميعًا وآثار البارحة محفورة في وجوهنا...تقدمت مسيرهم في صمت نحو غرفة "شريف" الذي ابتسم بمجرد رؤيتنا...يا إلهي...كيف سنخبره؟!

- "إزيكم يا شباب...مالكم قلقانين ليه؟ أنا زي الفل أهو".

نظرنا لجسده الذي دُفن تحت أكوام من الأربطة، والجبس الذي سيأسر ساقه اليسرى لشهور قادمة، حاولت الابتسام مثله...لم أتمكن..فجاءت ابتسامتي كابتسامة المصابين بعسر الهضم أو وجع الضروس...

الرفاق يبادلون "شريف" بعض الكلمات المقتضبة عن صحته وتمنياهم بالشفاء العاجل...أستشعر في كلماهم هروبًا من الحقيقة مثلما أفعل...كيف السبيل إلى إخباره بما حدث؟ جميعهم على اتفاق غير معلن بعدم التصريح، وكأنهم نصبوني زعيمًا عليهم ليرغموني على اتخاذ الخطوة الأولى...

تبًا..

بعد فترة من الصمت...نظر نحوي "شريف" وقال في جدية:

– "مالك يا أدهم؟ ساكت ليه؟ الدكتور قالك حاجة عني وانت مخبيها؟"

آه يا صديقي العزيز..لقد أصبتَ جزءًا من كبد الحقيقة، لو كنت سبب المشكلة لكان الأمر أهون...

أجبته في تردد:

– "لأ...إزاي يا جدع....بالعكس، الدكتور قال إن حالتك كويسة أوي..يادوبك بس كام شهر في الجبس وتبقى زي الفل تاني".

– "أومأل فيه إيه يا أدهم؟ مالكم يا جماعة؟ انتو مخبيين حاجة فعلًا..خالد وميار وإيمان فين؟"

اعتدلت في مجلسي نحوه ثم قلت بصوت حاولت منعه من التهدج:

– "شريف...الحادثة كانت رهيبة فعلًا...حالتكم كلكم كانت سيئة جدًا...انت تعتبر أحسن واحد".

صُدم "شريف" بما قلته...وشعرت بأن الحقيقة بدأت تصل لعقله...كل تلك الأربطة والجبس تساوي أحسن حالة، فما بال الآخرين؟

أكملت قائلًا:

– "ميار جالها إصابة في العمود الفقري، وللأسف مش هتقدر تمشي على رجليها تاني".

بدا الأسى على وجه "شريف" الذي أحنى رأسه قليلًا، وتمتم ببعض كلمات خافتة...ثوانٍ طويلة مرت ثم سألني السؤال الأصعب في حياتي...

– "طب وإيمان وخالد؟ جراهم إيه أكتر من ميار؟"

أخذتُ نفسًا عميقًا، بينما توتر الجميع بجانبي...لحظة الصدمة الثانية آتية الآن لا ريب فيها..فليساعدنا الله!

– "إيمان و خالد....تعيش انت"

تسمر وجه "شريف"...بل الأصح أن أصفه بالتجمُّد...لم ترتعش ولو شعره في وجهه...يتصارع بنفسه شعوران كاسحان..فقدان الحبيبة، وفقدان الصديق الوفي...تضطرم النيران بداخله لتخرج على هيئة دمعه حارة سالت على جبينه في صمت...دمعة مهدت الطريق لأخواتها بالمرور...

بدأت دموعنا في الانهمار مثل "شريف"...لم نستطع الاقتراب منه أو احتضانه في ظل وجود أربطة ذراعه وخصره وساقه، فاكتفينا بالانكسار وبكاء العاجزين ...

مرّ اليوم بصعوبة بالغة...ظللنا بجانب "شريف" حتى انتهى وقت الزيارة ليلًا...مرّ ذلك اليوم الأشد سوادًا في أيام حياتي تاركًا في حلقي غصة مؤلمة ستدوم طويلًا...حينها لم أعلم أن بنهاية ذلك اليوم، ستبدأ حياتي في التحول لمسار غريب...أغرب من كل ما سَبَقَ!

***

33

التفتت نحوي ساحرة القيروان وقد ارتسمت على شفتيها الجافتين ابتسامة ساخرة...لم تتفوه بحرفٍ لثوانٍ، ثم استدارت وتركتني راحلة...

استفقتُ على ارتجاجة عنيفة، لأجد نفسي مازلتُ بالحافلة عائدًا للمنزل...كان من الطبيعي أن يدركني النوم ولو لدقائق قليلة بعد ذلك اليوم المرهق..ظللت أرمُقُ الشارع من مجلسي، وقد ارتكنت جبهتي على زجاج النافذة المتسخ...حاولت استعادة أحداث ذلك الحلم القصير، فلم أتذكر إلا وجه تلك العرافة وقد ابتسمت ساخرةً منّي...ماذا تريد تلك الساحرة؟ وأي أضغاث أحلام تلك اللي أحالت فترات نومي المتفاوتة جحيمًا متواصلًا؟!

منعني وصولي للمنزل من مداومة التفكير بذلك الموضوع..أولجت المفتاح في الباب، ليقابلني وجه جدي الذي جلس بمكتبه مثبتًا نظره على مدخل المنزل...

– "إيه يا أدهم!! كنت فين كل دا؟"

– "هقولك على كل حاجة"...

ولمدة ربع ساعة كاملة، رويت له ما حدث بالساعات الأربع والعشرين الماضية...ذُهلت بعدما أدركت أن كل ما حدث لم يستلزم أكثر من يوم واحد...يوم مرّ كدهر كامل!

نكس جدي رأسه حزنًا وقد أخذ يتمتم هامسًا...يتذكر جدي "خالد"– رحمه الله – جيدًا مثلما يتذكر بقية أصدقائي منذ طفولتي..

تركني جدي لدقائق خلعت فيها ملابسي وارتديت بدلًا منها ملابس المنزل، ثم اتجهت للمطبخ لإعداد شطيرة سريعة قبل أن أخلد للنوم، فوجدت جدي يسألني قائلًا:

– "وناوي تعمل إيه؟"

أجبته مندهشًا:

– "بخصوص إيه؟"

– "بخصوص الشغل بتاعك..مش انت المفروض عندك حلقة بكرة؟"

تذكرت بالفعل ارتباطي بموعد الحلقة غدًا...لا بد من تأجيلها أو إلغائها..ما الحل؟

أسرعت بمكالمة زملائي بالمحطة لبحث تلك المشكلة، وبالرغم من تأخر الوقت، تمكنت من الوصول لثلاثة منهم..و كانت إجاباتهم متماثلة...لا بد من إذاعة الحلقة للأسف...

دخلت لغرفتي وأغلقت بابها وراني...ظل الأرق حليفي طوال الليل بعدما ظننت أن إرهاقي سيحيلني جثة هامدة...عيني مغلقتين، بينما عقلي يعمل جاهدًا لترتيب أوراقي المبعثرة...جاءت الحادثة فبلبلت حياتي، أدخلتني طريقًا مظلمًا لم أتخيل الاقتراب نحوه....يا الله!

***

"شكرًا ليكم على استماعكم للحلقة، وأتمنى تكون عجبتكم..وإلى لقاء قادم بإذن الله..."

انتهيت من إذاعة الحلقة، وإن لم أدر كيف قمت بإذاعتها، بل إني لا أتذكر حرفًا مما قلته فيها....ولكن فيما بعد، كانت أراء الزملاء بأن مستوى الحلقة على ما يرام، بالطبع ليست في قوة سابقتها، ولكنها تفي بالغرض...هؤلاء مَنْ علموا بفاجعتي واسوني، ومن لم يعلم استنتج أن هناك ما يشغل بالي، فكان الضعف النسبي لمستوى الحلقة هو أنسب نتيجة...

هرعت نحوي "أروى" لتستقبلني بمجرد خروجي من غرفة التسجيل...لم أتمكن من رؤيتها منذ أن رافقتها لمترلها، ولم أستطع

مهاتفتها في الهاتف لأخبارها بما حدث...ولكن احمرار عينيها والإرهاق البادي على وجهها أنبآني بعلمها بالكارثة...

– "البقاء لله يا أدهم".

– "شكرًا يا أروى...عرفتي منين؟ أنا أسف إني ملحقتش أقولك".

– "عرفت من "منى"...كنت أخدت نمرة تليفونها لما اتعرفت عليها في الفرح، ولسه قايلة لي امبارح اللي حصل..شريف عامل إيه؟"

– "ربنا يكون في عونه...الراجل فقد اتنين من أقرب الناس ليه في دقايق...أنا في مكاني دا وحاسس بحزن ما يعلم بيه إلا ربنا..فما بالك باللي هو حاسس بيه؟"

أومأت "أروى" برأسها مؤكدة كلامي، ثم دعت لمن مات بالرحمة...

لم أجد ما يُقال بعد ذلك، فاستأذنتها في الرحيل...همّت بالقيام معي، فأخبرتها في هدوء بأنني سأرحل وحدي تلك المرة...

صمتت "أروى" بينما أفصحت عينيها عن كثير من الكلام..لم أنتبه لذلك بينما استدرت نحو المخرج تاركًا إياها وحيدةً...

لماذا قمت بذلك؟ وما ذنب "أروى" أن أعاملها بهذا الجفاء؟ لم أقصد ذلك، ولكني بالفعل أرغب في الانفراد بنفسي قليلًا...

ربما كان انعزالي عمن حولي هي طريقتي الخاصة في إبداء حزني؟ أم هي وسيلتي لترع نفسي من الأحزان؟ ارتبك حالي كثيرًا في الآونة

الأخيرة بعدما حدث...عدت للمنزل لأجد جدي في غرفة المكتب كعادته يقرأ ويتصفح كتبه الأثيرة...

آويت إلى غرفتي...دامت عزلتي تلك لأسبوع كامل...بجانبي هاتفي الذي صار قطعة صماء من المعدن بعد أن فرغت بطاريته...لم اهتم بإعادة شحنها، وندر كلامي مع جدي الذي لم أعد أراه إلا على منضدة الطعام...

استغرق كثيرًا من الوقت ناظرًا للفراغ في سقف غرفتي...أتأمل الفراش، الحوائط المزدانة ببعض الصور القديمة لجدي وأفراد أسرتي الراحلة...كتب قديمة قد تناثرت على سطح مكتبي...ومشغل الموسيقى الخاص بي قد ارتكن على أحد الكتب في هدوء..

اتجهت إليه وأمسكته، بينما تبدل أصابعي الأغاني بحثًا عما يريح أعصابي ويبعد عنها ذلك التوتر القاتل كجاثوم لعين..

أتذكر سخرية "خالد"البريئة من سماعي لتلك الموسيقى الكلاسيكية...

"وماله يعني شعبان عبد الرحيم يا عم أدهم؟ هههههههههههههه"

اضطرب عقلي نتيجة تلك الذكرى الخاطفة، وفشل في تحديد دوائه الشافي من التوتر، فألقيت بالمشغل في إهمال على فراشي، وذهبت إلى جدي بمكتبه..رأيته جالسًا في مكانه الأثير، سألته وقد بدأ الصداع في التسلل لرأسي:

- "نويت على إيه في الرحلة الجاية؟"

أغلق جدي دفتي كتابه، ونظر لي في صمت..ثم قال:

– "التاريخ كبير جدًا...صعب إني أقرر مسارنا فيه إزاي...بس أعتقد إن الفترة اللي فاتت دي محتاجة رحلة لفترة هادية شوية...محتاجين رحلة نريح فيها أعصابنا".

أعجبتني فكرة استخدام الماضي كوسيلة لنسيان الحاضر، وإن كان العكس هو السائد... قبل أن تخرج من فمي كلمات الموافقة، جال بخاطري بعض الأفكار التي استحوذت على عقلي خلال اليومين الماضيين...لم أتمكن من كتمانها، برغم علمي لعدم جدوى مناقشتها مع جدي...

– "إحنا ينفع نسافر لمرحلة زمنية قريبة؟"

– "قريبة إزاي؟؟"

– "يعني...من يومين مثلًا"

أدرك جدي ما أقصده، فهبَّ واقفًا وقد تركزت عيناه على وجهي قائلًا:

– "لأ يا أدهم...انسى الفكرة دي تمامًا"

– "هيحصل إيه يا جدي لما أسافر قبل الفرح بساعة وأمنع خالد من حضور الفرح بأي طريقة، أو على الأقل أمنعه من قيادة العربية أو ركوبها من الأساس؟"

– "متستهونش بأي تغيير في الماضي ولو بسيط من وجهة نظرك...تدخلك دا هيتسبب في إحياء اتنين مكتوبلهم يموتوا في الوقت دا مهما حصل.."

ثم عاد مرة أخرى لمقعده وأردف:

– "الزمن لو حصل فيه تغيير بسيط، بيصحح نفسه بنفسه، فيتلاشى التغيير دا مع الأحداث التانية...أما التغييرات الكبيرة لو زادت عن حدها وكترت، ممكن دا يسبب انهيار تام لمجرى الزمن...الموضوع هيبقى أكبر من قدرتنا المحدودة على إيقافه... أرجوك يا أدهم...ابعد الأفكار دي عن دماغك نهائيًا، ويا ريت متقترحش الموضوع دا تاني".

حاولت إثناءه عن موقفه..فسألته متحمسًا:

– "طب ليه انت محاولتش تجرب تغير في الماضي؟ يعني عاجبك كل المشاكل اللي حصلت واللي كنت تقدر تمنعها؟"

لم ألاحظ ارتفاع نبرة صوتي بينما استمر لساني وحده في التحدث:

– "إزاي يبقى في ايدك معجزة انت مش عاوز تستغلها علشان الناس؟ هتستفيد إيه بمجرد مشاهدة الماضي لوحدك؟"

قاطعني جدي غاضبًا:

– "أدهم!"

تسمرت واقفًا بعدما أدركت أني قد تخطيت حدودي...احمرّ وجه جدي من شدة الغضب...لقد صُدم بما قلته بالفعل...

– "الحوار انتهى في الموضوع دا...مفيش تغيير للماضي زي ما قلت...والرحلة الجاية كمان يومين ...انت حر لو عايز ترافقني فيها أو عايز تفضل هنا في الحاضر.."

مثلما صدمتُ جدي بكلامي، ارتدت الصدمة لجانبي..لم أعتد أن يحدثني جدي بتلك اللهجة الجافة.. أغلقتُ باب غرفة المكتب ورائي بينما عدت لغرفتي صامتًا..

في لمحة خاطفة، رأيت نفسي بمرآة الغرفة...أقترب من سطحها المصقول الذي تقشرت مادته اللامعة من بعض الأركان...يطالعني وجهي المنهك، تلك العينان البنيتان الغائرتان..الشعيرات السوداء الخشنة المتناثرة بوجهي تعبيرًا عن ذقنٍ لم يلمسها حد الموسى لأيام طوال...

أحرك يدي اليمنى، فيماثلني شخصي المسجون بعالم المرآة ويحرك يده اليسرى...تتلامس أصابعنا عند الفاصل البارد لعالمينا..فقدت وزنًا ليس بالقليل خلال الأيام الماضية...أغمضت عيني في ألم متذكرًا كل ما حدث...لا سبيل إلا نوم عميق أغرق فيه ناسيًا – أو متناسيًا– تلك الحوادث المقبضة...

حينها نمت نومًا سريعًا، أظنه كان خاليًا من أي كوابيس...لم أرَ فيه إلا "خالد" – رحمه الله – مرددًا جملة قد قالها لي مسبقًا...

"أوعدك إنك مش هتنسى الليلة دي".

بينما تتعالى أصوات الزغاريد وضربات الدفوف، ثم صوت كاسح لتوقف مفاجئ لسيارة ما...

***

بعد يومين...سافر جدي بالفعل في رحلته وحيدًا، بعدما رفضتُ ملازمته للمرة الأولى منذ بداية سفرنا معًا..

في صباح اليوم التالي لرحلته، كانت تلك فرصتي للاعتذار لجدي بعد أسبوعٍ كاملٍ من الجفاء والصمت المتبادل...

تقبلّ جدي اعتذاري في هدوء...كلانا يدرك تأثير الفترة السابقة على أعصاب الجميع، وكأي شخصين متحضرين، تناولنا الفول والبيض والجبن على مائدة الفطور بكل حماسة...

أخبرني جدي بما رآه في تلك الرحلة وما شهده...لم تشتمل تلك الرحلة على أي أحداث خطرة، بل كانت هادئة تمامًا واكتفى فيها جدي بالاستكشاف كعادته وتسجيل الملاحظات في ذهنه المتقد...

بعد الإفطار أولجت هاتفي المحمول بالشاحن الكهربي...استقبلتني نغمة تشغيل الهاتف، ثم توالت بعدها الرسائل القادمة من "أروى" الملتاعة بشأني...سأنتظر حتى يكتفي الهاتف بحصة كافية من الطاقة ثم أهاتفها لأطمئنها...

ذهبت لجدي بغرفة المكتب...أقلّبُ بيدي أغلفة الكتب المتكدسة على أرفف المكتبة، بينما احتفظ جدي بكتاب ما، ظَلّ يقرأ في صفحاته بعنايةٍ شديدة...

أخرجت من وسط الكتب كتابًا يتناول حقبات مختلفة من التاريخ المصري، أعجبني فيه ذكره لبعض الأحداث الغريبة التي ثار الشَّكُّ حول حدوثها من عدمه...

وإن كان بمصر كثيرٌ من الأحداث الغريبة بالفعل، والتي صارت مع الوقت حقيقة غير قابلة للجدال، فالشعب المصري قادر وسيظل قادرًا على إدهاش العالم بأفعاله وأفكاره...

ارتكنت على المكتبة مستمتعًا بتقليب صفحات ذلك الكتاب...أحداث ووقائع مدهشة بالفعل، بعضها معلوم للجميع والبعض الآخر ظَلَّ في طي الكتمان، وحتى إن خرج للناس، فتداهمه الألسنة محولةً إياه لشائعات وأنصاف حقائق...

سألت جدي مندهشًا عن إحدى الوقائع التي ذُكرت بذلك الكتاب...لم تصادفني من قبل بالرغم من قراءتي لعديد من كتب التاريخ...

– "إيه فترة الشدة المستنصرية دي يا جدي؟"

أغلق جدي الكتاب، ثم صمت قليلًا كمن يسترجع معلوماته، ثم بدأ في الكلام..

– "دي فترة حصلت أيام المستنصر بالله خامس الخلفاء الفاطميين في مصر..وقتها النيل منسوبه قلّ، والبلد واجهتها أزمات اقتصادية شديدة، والحبوب والغلال سعرها غلي، والإدارة كانت ضعيفة...وفضلت المشاكل دي لمدة سبع سنين.."

حاولت آن استوضح منه ما قرأته في تلك السطور..

– "بس دا مكتوب هنا إن الناس كلت بعضها؟! معقولة دا حصل؟"

هز رأسه متفهمًا، وقال:

– "فعلًا فيه كتب كتير بتحكي عن المواقف دي..وإنه إزاي الناس اضطرت تأكل لحم الكلاب والخيول بسبب قلة لحوم الماشية، وإن الموضوع وصل بيها إنها تاكل الحيوانات حتى لو ميتة..وبعض الكتب بتذكر فعلًا حوادث حصل فيها أكل للبشر..وإن كنت أنا شخصيًّا مش مصدق الكلام دا..أو على الأقل مش بالطريقة المهولة اللي اتذكرت في الكتب".

اختمرت بذهني فكرة شنيعة...لما لا تكون الشدة المستنصرية وجهتنا القادمة؟

وكأن جدي أدرك ما سيقود إليه حوارنا، فهز رأسه نافيًا بقوة قائلًا:

– "بلاش يا أدهم...الفترة دي صعبة جدًّا...حتى وإن كانت هنا على أرض مصر، لكن فعلًا كانت فترة مفيهاش أمان...المخاطرة شديدة جدًّا"

أثارني كلامه أكثر من ذي قبل...ولكن لِمَ الخوف؟ سنحتفظ بالساعة بالقرب من أصابعنا، وإن حدث سوء فطريق العودة أقرب

إلينا من أي خطر، ما هي إلا ضغطة صغيرة على زر الرجوع، ونعود لحاضرنا سالمين...

أقنعْتُه بفكرتي تلك، فلانت ملامحه قليلًا، وإن انشغل عقله بمحاورات ومناقشات محمومة تبدأ وتنتهي في أجزاء من الثانية..

تملكت جدي روح المغامرة...إنها فترة زمنية شديدة الأهمية بالفعل، وكم من أحبار سالت في الكلام عنها...يمنعنا عنها خطرها الداهم، أما إن تمكننا من تأمين أنفسنا...فما المانع؟

تركت جدي وأنا واثق بنمو البذرة التي ألقيتها في أرضه...سأنتظر رأيه بعد ساعات..

هاتفت "أروى" التي هاجمتني صائحة:

– "قافل الموبايل لمدة أسبوع يا أدهم! طب طمني عليك بأي حاجة".

– "أسف يا أروى والله...إنتي عارفة اللي حصل مخلينا كلنا إزاي".

– "ربنا يرحمهم يا أدهم...بس كان لازم تكلمني على الأقل ولو لمرة...أنا كنت خلاص هجيلك الشقة أشوفك..خفت يكون جرالك حاجة".

– "ربنا ما يحرمني منك...معلش...فترة وهتعدي إن شاء الله".

أنهيت معها الحوار متمنيًا في داخلي انتهاء تلك الفترة الغريبة بالفعل...بعدها اصطحبت ذلك الكتاب لغرفتي لأبدأ في معرفة المزيد والمزيد عن وجهتي القادمة مع جدي...

***

34

(إنّ امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقدًا لها قيمته ألف دينار، وعرضته على جماعة في أنْ يُعطوها به دقيقًا، وكلٌّ يعتذر إليها، ويدفعها عن نفسه، إلى أنْ رحمها بعضُ الناس وباعها به، وليس دقيق بمصر، وكانت تسكُن بالقاهرة، فلما أخذته أعطت بعضَه لمن يَحميه من النَّهَّابة في الطريق، فلما وصلت إلى باب زويلة، تسلمته من الحُماة له ومشت قليلًا به، فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهبًا، فأخذت هي أيضًا من الناس من الدقيق ملْءَ يديها، لم يَنُبها غيره، ثم عجنته، وشوته، لما صار قرصة، أخذتها معها، وتوصلت إلى أحد أبواب القصر، ووقفت على مكان مُرتفع ورفعت القُرصة على يدها بحيث يراها الناس، ونادت بأعلى صوتها:

"يا أهل القاهرة، ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسْعَدَ اللهُ الناسَ بأيامه، وأعاد عليهم بركاتِ حُسْنِ نظره، حتَّى تقومت على هذه

القرصة بألفي دينار"..فلما اتَّصل به ذلك، امتعض له وقدح فيه وحرك منه").

(وأخذ المستنصر نصيبه كاملا كأي فرد في الشعب من المجاعة والحاجة.. فالجوع لا يرحم أحدًا لذلك أرغم الجندُ الخليفةَ المستنصر أن يبيع ممتلكاته حتى يدفع لهم أجورهم..وكان يشارك كل يوم في تكفين عشرين ألفًا من الموتى من ماله حتى لا يطرحهم ذووهم في النيل..فصرف كل ما يملك..حتى خلا القصر من أثاثه اللهم إلا من حصيرة قديمة..يتخذ منها مجلسًا ومرقدًا..ولم يبقَ معه إلا غلام واحد يخدمه وحمار هزيل يركبه..أما طعامه فكان رغيفين كل يوم تبعث له بهما بنت أحد العلماء كصدقة..وكان لا يقوى في بعض أيامه على الوقوف من شدة الجوع..أما أسرة الخليفة وأمه ونساء القصر فقد هاجروا من مصر لإنقاذ أنفسهم من الجوع وعصيان الجند).

هكذا يروي المقريزي عن أحداث تلك الفترة العصيبة، وتتابع عيناي التهام السطور بينما يزداد التوجس بداخلي...لِمَ التهور؟

قرأت سطورًا في أحد كُتبِ "ابن إياس" تعقيبًا عن تلك الفترة السوداء، ما قد يُثير حفيظة جدي بالذات... فكان المكتوب كالتالي:

(ولم تسلم المكتبة الملكية من العبث فأمر ناصر الدولة جنوده بنهبها، وكان فيها مئات الألوف من المجلدات فأخذها الجنود وكانوا يتسلون بتمزيقها كما يتسلى الأطفال بتمزيق الأوراق واللعب بها، وحدث أن أحد قواد المستنصر كان عهد إليه بالهجوم على قصر الخليفة ونهبه، فاعتنى بحمل جميع الكتب الثمينة، وأنقذ ما يمكن إنقاذه

وحملها إلى الإسكندرية، ولكن التقى بحامليها عصابة من المتمردين الذين انتشروا في طول البلاد وعرضها، فاستولوا على الكتب ونزعوا أغلفتها المصنوعة من الجلود الثمينة المزخرفة وحولوها إلى نعال يلبسونها، أما الأوراق فأشعلوا فيها النار وما بقي طرحوه في الصحراء، فحملتها الرياح وشاهدها الناس وبقيت هذه الأوراق منتشرة على سطح أحد التلال فأطلق الناس على هذا التل اسم "تل الكتب"..

أشعر وكأن يدًا خفية تدفعني دفعًا نحو تلك الرحلة التي لا مفر منها، وإن كان فيها الخطر الوشيك.. وتأكدت مخاوفي بمجيء جدي ليلًا قائلًا باقتضاب:

- "استعد...بكرة الصبح هنسافر"

***

كيف تستعد لرحلة ستواجه فيها الخطر والموت بنسبة لا تقل عن 90%؟

لا وقت للتفكير في إجابات ساذجة..فليكن اهتمامك الأكبر بتأمين حياتك...توجَّه للمطبخ، انزع إحدى السكاكين الخفيفة ذات النصل الحاد...قم بتخبئتها جيدًا بين طيات ملابسك، فلا ينتبه إليها من يهاجمك إلا وقد صار بينه وبينك خطوات معدودة..حينها أخرج السكين بقبضة متماسكة واطعنْهُ في جانبه بكل ما أوتيت من قوة...

تلك السكين التي استعملتها طوال حياتي في تقطيع الخبز والفاكهة، صارت هي ملاذي الوحيد إذا ...قابلت أي خطر ولو قليل في تلك الرحلة المشئومة.

دعاني جدي لصلاة الظهر قبل انطلاقنا لزمن المستنصر بالله... توضأتُ ووقفتُ بجانبه في صمت وخشوع، في منتصف الركعة الثانية بدأت الأفكار السوداء تجوالها في خاطري... لدينا وقت كاف لنتراجع عن تلك الرحلة، ولكن صرخاتي الداخلية تخفُت بمجردً اقترابها من طرف اللسان حتى تصمت تمامًا...ألمح قلقًا مساويًا لقلقي في عيني جدي، ولكن كلًا منا يتظاهر بالثبات أمام الآخر..

– "لو حاسس إن الرحلة دي خطيرة...ممكن نلغيها يا جدي".

– "لأ...مينفعش خلاص...لازم نسافر للزمن دا".

لم أفهم معنى ما قال، فهززت رأسي صامتًا بينما ضبط جدي ساعته على الموعد المحتوم...العام الهجري 460 أو ما يوازيه 1067 بالتقويم الميلادي، ابتسم جدي وقهقه ساخرًا، بينما تضغط أصابعه أرقام وحدات الشهر واليوم، فعاجلته بالسؤال متوترًا عن سبب ابتسامته العجيبة...

– "في السنة دي حصل زلزال كبير في مصر وفلسطين...بس هيبقى بعد وقت سفرنا بشهرين، واضح إنها سنة جميلة فعلًا".

حاولت الابتسام مثله، ولكن تحولت ابتسامتي الفاشلة لمجرد ارتجافة عصبية بشفتي...انتهى جدي من إعداد الساعة، وضغط على زرها الكبير محاولًا أن يظل متماسكًا..

تكونت بداية الممر الدودي أمامنا في الفراغ كالعادة...لماذا أراها كوحش ضارٍ وقد انفتح فمه أمامنا ليبتلع جسدينا بلا رحمة؟ القلق يتملكني بالفعل....تقدمنا معًا بينما تناهى لمسمعي صوت خافت لتمتمات جدي الهامسة..

***

حدث الانتقال بسرعة مذهلة، أو ربما انشغلت بهواجسي عن الإحساس بما يحدث لجسدي في كل انتقال..

كان أول ما لاحظته بمجرد وصولنا بخلاف أشعة شمس الظهيرة التي أغرقت رأسي، هو الصمت الشديد..

تحيطنا حارات القاهرة القديمة...قاهرة المعز لدين الله...بينما يرتمي جسدانا على الأرض الترابية لإحدى أسوأ فترات القاهرة في تاريخها الطويل...

ارتكن جدي على ذراعي بينما نهضنا معًا، لنبدأ في استكشاف المكان في قلق بالغ..لا وجود لإنسان..لم نرَ حتى كلبًا ضالًا يجول في شرود بالقرب منا...

البيوت تتناثر على أركان الحارة، بيوت لم تفقد زخارفها جمالها بعد، ولم يضع الزمان بصمته عليها.. بينما رياح خفيفة كالنسيم تهب

علينا...و بدلًا من أن تُسرِّي عنّا قليلًا، جاءت محملة بإحساس مقبض، زاده ذلك الصمت المستمر في الأرجاء من حولنا...

بدأنا مسيرنا خروجًا نحو ما ظنناه شارعًا رئيسيًّا، فوجدنا البيوت وقد أغلقت أبوابها، الدكاكين وقد تُركت بعضها خاوية من الناس بينما قبعت بضاعتها القليلة تنتظر من يشتريها...

مرّ ما يقرب من ربع ساعة من المسير فلم نرَ أحدًا...يغلب التوتر على قلوبنا، بينما بدأت بعض الأصوات في الاقتراب منا...أتحمل معها النجدة أم الموت؟

جاء الصوت واضحًا ناحية إحدى الحوانيت المغلقة على مدخل الحارة التي ولجناها، و بعدها بثوانٍ ظهر ثلاثة رجال في أسمالٍ قذرة تغطي أجسادهم النحيفة التي يظهر عليها المرض والإرهاق واضحًا كالخناجر الصدئة المرتكزة في أحزمة ملابسهم..اختبأنا خلف جدار إحدى البنايات رغبةً في الابتعاد عن مدى نظرهم ريثما يبتعدوا عن ذلك المكان..

همست لجدي محاولًا إن يظل صوتي مسموعًا بعض الشيء له:

– "هنعمل إيه دلوقتي؟ شايف الخناجر اللي في إيديهم؟"

هز جدي رأسه في انفعال، بينما يحاول كلانا البحث عن حَلٍّ للهروب من تلك المنطقة بدون لفت أنظارهم إلينا...انتظرنا لفترة طويلة إلى أن بدأ الثلاثة في الاستلقاء على ظهورهم والارتكان على جدران مبنى متهدم بجوارهم...

ما إن تأكدنا من غفوتهم، قمنا على أطراف أصابعنا كمتسللٍ حذرٍ، اقتربنا من الرجال في هدوء لنكمل مسيرتنا في تلك الحارات التي تسكنها الأشباح...

فجأة، نبت من العدم صبي صغير اختطف الساعة المتدلية من جيب بنطالي، وبادَرَ بالفرار ناحية حارة أخرى يرتكز على مدخلها سبيل ماء جفَّت مياهه...

انطلقت من حلقي صرخة مفاجئة لم أستطع كتمها، فوصلت إلى أُذُني أحد الرجال الذي استيقظ من نومه مفزوعًا، نظر إلينا لثانية ثم تحفز قائمًا في سرعة بينما فعل مثله زميلاه النحيلان...

***

أسرع جدي نحو الصبي المنطلق كالسهم محاولًا الحصول على الساعة منه، بينما ركضت خلفهما هربًا من العصابة التي بدأت في اللحاق بنا...

استمرت المطاردة لدقيقتين، بدأ جدي يشعر فيها بالتعب والإجهاد، بينما مازلتُ قادرًا بعض الشيء على الركض...بدأنا في الاقتراب من الفتى الذي صار يهرول كقط مذعور...أناديه بسرعة طالبًا منه الساعة بدون أن أؤذيه...

انطلق رمح شَقَّ الهواء فجأة قادمًا من سطح أحد المباني الصغيرة، فانغرس في جسد الصبي... اتسعت عيناه في دهشة بينما سالت الدماء من فمه الصغير لتغرق رقبته وصدره...ارتعش جسدي لمرأى ذلك

الحدث الشنيع، بينما نالت المفاجأة من جدي لثانيتين، ثم أسرع نحو يد الفتى لتقبض على سلسلة الساعة، فاختطفها من يده خوفًا من أن يراها أحد مطاردينا الثلاثة...أو على أسوأ تقدير، صاحب اليد التي أطلقت ذلك الرمح!

اقترب الرجال الثلاثة منا، وبدؤوا في الإبطاء من سرعة ركضهم، بينما ارتسمت على وجوههم نظرات اشتهاء بغيضة زادت ملامحهم بسببها سوءًا...لم تدم تلك النظرات طويلًا، فقد عاجلت أولهم ضربة رمح اخترقت رقبته فنفذت من كبده...ثوانٍ وخَرَّ صريعًا على الأرض..

بدأ زميلاه في الالتفات حولهما في وجَلٍ، منتظرين الضربة التالية التي ستودي بأبطأهما في ردِّ الفعل...شاركناهما نفس القلق، وإن كانت الضربات حتى الآن في صالحنا...

تراجع الرجلان نحو مبنى من طابقين، فاستندا بظهريهما على جدران مدخله طلبًا للأمان، بينما أسرعت خلف جدي الذي التجأ نحو منزل خاوٍ فاختبأ خلف بوابته الخشبية...

بينما كنا مستترين خلف البوابة، ننظر بكل ترقُّب للرجلين المتلاصقين بالمبنى وقد ارتعش جسداهما من الخوف، هبط على أولهما من السماء خطاف معدني صدئ مرتبط بحبل ليفي غليظ...اخترق الخطاف ظهره في عنف، ثم بقوة هائلة انسحب إلى سطح ذلك المبنى الصغير...كتمت بيدي صرخة كادت تخرج من فمي...يا إلهي! أتلك هي القاهرة بالفعل أم ساحة حرب يتقاتل فيها أنصاف البشر؟

استفقت من هلعي على جذبة قوية من يد جدي لذراعي، فنظرت له في سرعة، لأجده يشير لي في صمت نحو مدخل صغير لقبو مظلم خلف بوابة المنزل...أسرعنا نحو ذلك القبو لعلنا نجد فيه الأمن والأمان الغائبين عن ذلك العصر الدموي!

***

وكأننا في مشهد من مشاهد فيلم علاء الدين، إذ هبط للكهف السِّرِّيِّ للحصول على المصباح...وجدنا درجات لسلم صغير تهبط لمستوى تحت الأرض بحوالي المترين...الظلام شديد، والضوء خافتًا لا تتضح به أغلب الموجودات بذلك السرداب العجيب...لم نستمر في الهبوط لأكثر من اثنتي عشرة درجة ثم تلمست أقدامنا أرضًا شبه ممهدة لغرفة متوسطة الحجم...

– "مين الناس اللي برة دول يا جدي؟"

– "المقريزى بيقول في كتاب (إغاثة الأمة) إن بعض الناس كانت بتعسكر فوق البيوت ومعاها حبال وكلاليب وخطاطيف، ولو شافوا أي حد ماشي تحت البيت، كانوا بيعملوا فيه زي ما شفت، وبسرعة يشرحوه وياخدوا لحمه"..

قاومت قدرتي على التقيؤ...رأينا كثيرًا من السواد والدماء في ذلك الزمن..يا الله!

مددت يدي أمامي كالأعمى محاولًا استكشاف المكان، كذلك فعل جدي بينما سمعته يتمتم بصوت خافت ما قرأه عن مباني وبيوت تلك الفترة الزمنية التي كثر فيها استعمال الأقبية والسراديب...

– "البيوت كان فيها سراديب لتخبئة الكنوز عند الناس الغنية...ولتخزين الغلال والطعام عند التجار والناس المتوسطة الحال...وغالبًا كان بيبقى فيها فتحة تهوية لتجديد هواء المكان، خصوصًا لما بيتخزن فيها بضاعة او أي شيء قابل للإفساد والتعفن"..

قارنت كلماته بما أرى وأشم...فوجدت الهواء تغلب عليه رائحة عضوية عطنة...استمرت قدماي في التحرك بخطوات قصيرة نحو الأمام مستكشفًا جوانب القبو، إلى أن ارتطمت يدي بسلسلة معدنية مدلاة من السقف...

– "جدي...فيه سلسلة متعلقة من السقف...وفيها شيء زي خُطاف.."

خرجت كلماتي بينما أكملت يداي في تحسُّس السلسلة ذات الخطاف...يبدو أن ذلك المنزل مِلْكٌ لأحد تجار اللحوم أو الجزارين..فلقد شعرت أصابعي بملمس طري بعض الشيء لا ينتج إلا عن لحم كائن حي...

انطلقت من حلقي صرخة مختنقة، التفت بسببها جدي نحوي مسرعًا...

اقترب جدي من موضع وقوفي، واستند على كتفي متحسسًا طريقه نحو كف يدي التي ابتعدت عن السلسلة وخطافها بما تعلّق به..

صدرت آهة مفاجئة منه، أدركت بعدها أنه قد أدرك نفس ما أدركته أصابعي منذ لحظات...

ما لمسناه منذ قليل كانت جثة إنسان..أو على الأصح ما تبقى من ذراعه!

ما إن أدركنا خطورة ما نحن فيه، سارعنا نحو مدخل القبو وارتقينا السلالم في سرعة، لنجد أمامنا رجلًا ضخمًا نحل جسده بعض الشيء و طالت لحيته بجواره سيده مسنة، وقد أمسك كل منهما بعصا غليظة..

فوجئنا بوجودهما، بخلافهما فقد بدوا كالمتربصين بنا على مدخل القبو... بادرانا بضربة لكل منا من عصويهما الخشبيتين على رؤوسنا... فارتمى جدي على جانبه أمامي والدماء تترف من رأسه صابغةً بلونها الأحمر الداكن رقعة كبيرة من شعره الأشيب.. بينما غامت الرؤية من أمامي، ليحل محلها ظلام حالك...

***

35

صداع ودوار عنيفان يفرضان سيطرتهما على عقلي...تشوش في الرؤية مع إحساسي بسائل يقطر على جبيني...فتحت عيني بصعوبة فوجدت أمامي ذلك الرجل صاحب العصا وبجانبه السيدة المسنة...

بدأت أشعر بجسدي وكان أول ما أحسست به هو ألم ممض يتشعب من رسغي حتى صدري مرورًا بذراعي كلها...لحظات وأدركت بعدها أني معلق بإحدى السلاسل المعدنية في سقف القبو الذي أضاءه نور لشعلة نارية معلقة على الجدار خلف الرجل...

الإضاءة الآتية من خلفه أعطته رهبة سينمائية زائدة، بينما وجدت جدي بجواري في نفس وضعي المؤلم...فتحت فمي مرتجفًا مناديًا جدي فاقد الوعي...فابتسم الرجل الغامض في قسوة قائلًا:

– "إذن فهو جدك...التشابه واضح بينكم فعلًا".

أجبته في وهن:

- "أرجوك..اتركنا...نحن مسافران ولا نملك من المال شيئًا".

- "أنت كاذب...وما شأن تلك القلادة الذهبية العجيبة؟"

لمعت الساعة التي لم يدرك بحقيقتها...حمدًا لله...يجب أن استرجعها في أسرع وقت قبل أن يُتْلِفَها، قطع تفكيري صوته الجاف الذي أكمل قائلًا:

- "وخاتم جدك الثمين؟ وذلك السكين الغريب؟"

ارتعش قلبي للحظة...لقد فتش ملابسنا، ووجد سلاحي الوحيد...تبًا...ما الحل الآن؟!

- "كلاكما غريب...في ملابسكما وما وجدته بها...لكن لا يهم، فأمي جائعة الآن، ولم يأتِ ضيفًا للحارة منذ أسبوع...مذاق الجيفة لم يعد قابلًا للاستساغة".

أحسست بانقباض لما قاله، لم أخف من مصيري الذي صار واضحًا، ولكني خفت من وحشيته في وصف الفعل...سارعته متسائلًا:

- "كيف تأكلون لحم الجيفة؟ هذا حرام..وإن لم يكن حرامًا، فهو غير مقبول!"

نظر لي في استخفافٍ...ثم قال:

– "يبدو انك مسافرٌ عديم الانتباه...ألم ترَ ماء النيل الذي شَحَّ وظَهَرَ باطنه؟ ألم يصل لسمعك أصوات وبكاء الرجال قبل الأطفال والنساء؟ الغلاء ساد في أنحاء البلاد، وإردب الغلة والقمح صارا أسطورة من أساطير الأولين..."

ارتمى الرجل على أحد الصناديق جالسًا وأكمل بصوت بدأ في الانكسار:

– "ظلت المجاعة نحو عامين..لا فرج قريب، ولا خير يلوح في الأنحاء...مات أبنائي الثلاثة في منتصف العام الأول بعدما نفدَ الغذاء من منزلنا...ولم يتبقَّ بجواري إلا زوجتي وأمي العجوز...ساد الغلاء بعدما أغلق التجار الأبواب على غلالهم...التجأ الناس للحاكم فما وجدوا منه إلا قلة الحيلة...الوزراء متفككون، والبلاد ترزح تحت وطأة شُحِّ مياه النيل...ظهر أحد المجاذيب داعيًا للتقوت بلحوم الجياد والدواب..في البدء استنكر الناس قوله، ولكن الجوع كافر...كافر جدًا، لا يأبه بتعاليم أو أخلاق...بدأت الدواب في الاندثار، ولحقت بها الهررة و كلاب الشوارع، فصرت تمشي في الحارات والأسواق فلا ترى حيوانًا واحدًا بخلاف الإنسان...

توفيت زوجتي، ولَحقَت بأبنائنا في نهاية العام الثاني...بدأت بعض الأنباء في التوارد على ألسنة المناديين بأن أطفال بعض التجار قد تم اختطافهم أثناء لهوهم بالقرب من منازلهم..

كان اختطافهم في مبدأ الأمر ضغطًا على هؤلاء التجار، لكي يحلوا الأغلال عن الغلات...ثم وجدوا بالقرب من إحدى الدكاكين

أشلاء طفلًا من الأطفال...حينها بدأت بعض الحوادث في الظهور على استحياء...العثور على أشلاء فتى...رأس فتاة شابة وُجدت بجانب إحدى الأراضي...تسامر يسري بين الناس عن مقابر العائلة الفلانية التي وجدوها قد نُبشت ليلًا...كما أخبرتك...الجوع كافر!"

بدأ جدي في التململ معلنًا عودة وعيه إليه...تبًّا...ليتك لم تتحرك يا جدي، فقد قاطع فعلك هذا حديث الرجل، وكأنه تذكَّر ما كان سيفعله منذ قليل...هَبَّ واقفًا ناحيتنا، وقد أخرج سكينًا ضخمًا من طيات ملابسه...

نظرت السيدة المسنة في فرح غريب نحونا، بينما يقترب الرجل منا في لهفة...

– "سأنتهي من جدك سريعًا...فجسده لن يصلح كثيرًا للأكل".

صرخت فيه بقوة مترجيًا إياه أن يتركنا...سببته، توعدته، ثم حاولت إرضائه بالوعد بالمال...لم يفلح أي من ذلك في إثنائه عما فعله بعدها...أمسك بذراع جدي اليسرى ليبدأ في قطعها من المرفق بالسكين الحاد...فلم يتركها إلا و قد بُترت تمامًا وسط صياح جدي الملتاع، وصرخاتي التي فقدتُ بعدها الوعي مرة أخرى!

***

عاد الوعي مرة أخرى لي إثر ألم حارق اجتاح فخذي اليمنى.. نظرت بهلع نحو فخذي لأجدها قد تقطعت ملابسي عنها، وقد أمسك الرجل بساقي يحاول اقتطاع جزءٍ من جلدي بسكينه...ارتفع صراخي

بينما صنعت السكين خطًا داميًا فاتحةً الطريق نحو مزيد من الدماء القانية...لم أدرِ بنفسي إلا وساقيّ تندفعان لترتطم بصدر الرجل في سرعة وبأقصى قوة أمكنني إخراجها وقتها..

بالرغم من ضخامة الرجل، لكن مفاجأتي له بما فعلت كان لها أكبر الأثر على ما حدث له..فلقد ارتد جسده للخلف مسافة المترين، واصطدم بالحائط من خلفه واقعًا على الأرض...اهتزت الشعلة من مكانها، فسقطت بعض الجمرات المشتعلة وقطرات الزيت المغلي على رأسه...

تعالت صرخات الرجل، بينما شممتُ رائحة اللحم المشوي...هبّ الرجل واقفًا في غضب مسرعًا نحوي، فحاولت الإفلات والتحرك بالسلسلة لعلها تنكسر...أقبل الرجل نحوي، وسارعني بلكَمات في صدري وبطني كادت تفقدني الوعي للمرة الثالثة...حاولت المقاومة، بينما ما زالت السلسلة مستعصية على الفك...

فجأة ارتطمت عصا خشبية بقوة على رأس الرجل، فالتفّ في دهشة ليجد جدي واقفًا أمامه في وهن وقد أمسك بذات العصا التي صدمنا بها...ثم تهاوى الرجل في بطء متكوِّمًا كجوال على الأرض، بينما بدأت أمه العجوز في الصراخ بصوت واهن...

اقترب مني جدي محاولًا فك أغلالي، وقد أغرقت الدماء ساعده الأيسر المبتور، بينما شحب وجهه بشدة...لقد تمكن من الإفلات من قيوده بعدما حرر الرجل إحدى ذراعيه، فصار الفكاك من ذراع واحدة مقيدة أسهل كثيرًا من ذراعين...

ارتميتُ على الأرض بعدها باحثًا عن الساعة والخاتم والسكين...وجدت السكين والخاتم بالفعل، وبينما اقتربت يدي من الساعة، فوجئتُ بقبضة الرجل الغليظة تحيط بمعصمي في قوة...

حاولت التملُّص منه بينما أسرع جدي نحوه مبعدًا جسد الرجل عني، فتحوَّل الرجل نحوه محاولًا خنقه...لم أدرِ بنفسي إلا والسكين بيدي قد انغرس حتى المقبض في ظهر الرجل بالقرب من موضع قلبه!

التفتَ الرجل ناحيتي وقد اتسعت عيناه بشكل مرعب، وتسمر وجهه المرتعش بشده ثم تهاوى للمرة الثانية والأخيرة في حياته..

هكذا كان إحساس القتل للمرة الأولى بالنسبة لي...وقفت مذهولًا وكذلك كان جدي والمرأة المسنة التي أخذت في الولولة بكلمات غير مفهومة والبكاء على ابنها المقتول...

أمسكني جدي بيده اليمنى في سرعة بقدر ما استطاع وهربنا من الباب القريب، تاركين خلفنا ذلك القبو المشئوم...

***

أسرعنا الخطى بينما جروحنا تترف الكثير من الدماء الحارة.. اتجهنا نحو ما ظنناه منطقة معزولة بالقرب من موضع مجيئنا، لنتمكن من الانتقال بشكل نهائي لزمننا.. بينما تخرج يدي الساعة من طيات ملابسي، تخاذلت قدما جدي عن السير، وتوقَّفَ فجأة ممسكًا بيدي قائلًا في ضعف:

– "سافر انت يا أدهم..."

قاطعته في دهشة مستنكرًا:

– "إيه اللي بتقوله دا يا جدي! انت راجع معايا..."

أغمض جدي عينه لثانية ثم أكمل:

– "متتعبنيش معاك...أنا خلاص...أخدت اللي يكفيني من الماضي...والتريف المرة دي كبير..."

سعل جدي للحظات ثم أردف بصوت شديد الوهن:

– "اسمع كلامي كويس...حتى لو رجعت زمننا، هموت في الشقة...مينفعش تبقى ليا جثة في الحاضر...أنا المفروض إني ميت من شهور في زمننا.."

تسارعت أنفاسي بينما يلفظ جدي كلماته الأخيرة:

– "ادفني هنا...وعاوزك متزعلش...كل دا مكتوب وكان لازم حدوثه...الزمن منقدرش نغيره مهما عرفنا أحداثه وماضيه... على الأقل وأنا في نهاية رحلتي، هموت وأنا عرفت شوية عن الصح من الغلط...لازم الشك يكون رفيقك.. لو نفسك تلاقي الحقيقة في اللي بتقراه، يبقى لازم تشك...إياك تستسلم للإجابة الجاهزة.."

سالت دموعي فأغرقت وجنتي ويدي التي احتضنت يد جدي اليمنى ورأسه التي تجلطت دماؤها...

– "متبكيش يا أدهم...عيش حياتك واتعلم...اتجوز أروى في نفس المعاد..أنا ميت من زمان يا أدهم...متوقفش زمنك علشان زمن واحد تاني انتهي يا بني".

أخذ جدي نفسًا عميقًا..ثم هدأ جسده بعد ارتجافة خفيفة.. ارتسمت نظرة حانية على وجهه نحوي، ثم صارت خاوية من الحياة خلال لحظات..

تركت جسد جدي في هدوء ليلامس الأرض، بينما جلست بجانبه لدقائق بلا استيعاب..

اقتطعت جزءًا من طرف سروالي لأصنع منه ربطة بدائية لأمنع نزيف فخذي، وبعدها ظللت لساعتين أحفر بيدي في الأرض صانعًا قبرًا يليق بجسده..أحفر فيزداد حزني عمقًا بعمق الحفرة...ينهال التراب لأسفل مع حركة جسدي ويدي، بينما أصنع أكوامًا منه بجانب الحفرة..

الغبار يتطاير فيخنقني...أم تراها دموعي التي سالت ثم جفت، ثم سالت ثم جفت مرات ومرات هي سبب اختناقي؟

مع كل حركة من جسدي، تسيل الدماء من جرح فخذي مغرقةً ساقي وقدمي، تتكاثر الآلام بين ألم جسدي وحزني على جدي...

أمسكت بجسد جدي في حنان، واحتضنته للمرة الأخيرة، مغلقًا عينيه اللتين رأيتا وأدركتا..

أخرجت من جيوب ملابسي خاتمه الفضي ذا الفص الأحمر الداكن.. أمسكته بين أصابعي ناظرًا إليه في شرود.. هذه كانت هدية "مناحيم" لجدي.. هدية من زمن بعيد أعطى جدي إياها الآتي من زمن

آخر، ليرتديها للمرة الأخيرة في زمن ثالث بعيد عن كل تلك الأزمان...يا الله!

ألبست جدي خاتمه، ثم أنزلته إلى مثواه الأخير، فكان التراب المهال على جسده كقطرات الحمض على جسدي..يا الله..ارحمنا برحمتك، فأنت أرحم الراحمين....

***

للمرة الأولى..اضغط زر العودة منفردًا...

أرمق الأرض ورائي، أعض شفتي ندمًا على سوء قراري...تنهمر دموعي مرة أخرى ناظرًا نحو قبر جدي الذي لم أتمكن من تبين موضعه، وسط أكوام التراب المعتادة...هكذا...صار جدي ترابًا منثورًا منسيًّا، كأنه لم يوجد...

تقترب قدماي من المدخل الدودي ببطء متخاذل..غير راغب في النظر لمشهد المدخل ذي الألوان المبهرة والتكوينات السحرية...أسمح لقوى الجذب باحتضاني داخلها، وأترك جزيناتي تنضغط وتتمدد بدون اهتمام، إلى أن تُلقي بجسدي الجريح على أرضية غرفة المكتب وحيدًا بدون جدي الذي لن يعُود...

***

كانوا خمسة...

قاطعني بغتة كبيرهم بعينيه المجهدتين، وصوته الخافت المرتعش تأثرًا بما سمعه مني حتى الآن:

– "انت اتكلمت وحكيت وإحنا سمعنا...لكنك بتلف وتدور ورافض تقولنا".

نظرت نحوه في صمت، فاستكمل كلامه ملقيًا بسؤاله:

– "قتلت أروى ليه يا أدهم؟"

بعد فترة من الصمت بدأ سيل من الذكريات البشعة ينهمر كالطوفان مجتاحًا رُدهات عقلي ..و تبدأ دموعي في الانحدار على وجنتي لفترة ليست بالوجيزة..الكلمات تتكون بصعوبة على شفتي لتروي تلك الأحداث المشئومة...

– "مش أنا اللي قتلتها"

سألتني تلك المرأة الجالسة على يمين كبيرهم:

- "طب مين؟"

أجبتُ في خُفوتٍ:

- "أنا هحكي لكم كل حاجة"....

يتبع في الجزء الثالث والأخير

من ثلاثية المسافر

كانوا خمسة.. قاطعني بغتة كبيرهم بعينيه المجهدتين، وصوته الخافت المرتعش تأثرًا بما سمعه مني حتى الآن:

- "انت اتكلمت وحكيت وإحنا سمعنا...لكنك بتلف وتدور ورافض تقولنا".

نظرت نحوه في صمت، فاستكمل كلامه ملقيًا بسؤاله:

- "قتلت أروى ليه يا أدهم؟"

بعد فترة من الصمت بدأ سيل من الذكريات البشعة ينهمر كالطوفان مجتاحًا رُدهات عقلي ..و تبدأ دموعي في الانحدار على وجنتي لفترة ليست بالوجيزة..الكلمات تتكون بصعوبة على شفتي لتروي تلك الأحداث المشئومة، - "مش أنا اللي قتلتها"

سألتني تلك المرأة الجالسة على يمين كبيرهم:

- "طب مين؟"

أجبتُ في خُفوتٍ:

- "أنا هحكي لكم كل حاجة" ...

تصميم الغلاف: محمد عيد Photo: eeZoME

دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE